ضحى عبدالرؤوف المُل

زند الحجر...

رواية

دار الفارابي

الكتاب: زند الحجر...
المؤلف: ضحى عبدالرؤوف المُل
dohamol@hotmail.com
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٨

ISBN: 978-614-432-

© **جميع الحقوق محفوظة**

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المحتويات

تقديم ....محمد زينو شومان.......... ١١

الإهداء... .... ١٥

الفصل الأول.......................... ١٩

زند الحجر ٢١

الوعد العاشر ٤٨

الشرارة الأولى ٧٠

الفصل الثاني.......................... ٧٩

حلم الوحدة الاقتصادية ٨٩

الفصل الثالث ١٤٥

هذه الرواية عمل خيالي. إن الأسماء والشخصيات والأماكن والوقائع الواردة فيها، هي من مخيلة الكاتبة أو جرى استخدامها في النص بشكل خيالي. وأي تشابه بين هذه الأسماء وأسماء أشخاص حقيقيين أحياء كانوا أو أمواتاً، هو محض مصادفة، وكذلك أمر الأماكن في المدن والقرى والمواقع والأحداث..

تقديم

محمد زينو شومان

تمثل رواية «زند الحجر» مرحلة جديدة أكثر عمقاً وتطوراً في مسيرة القاصة والروائية ضحى عبدالرؤوف الملّ. إذ إن الملّ تقتحم عالم الرواية بعدّة لغوية وتقنية تدل على اختمار التجربة ودراية بخريطة الطريق، الذي تسلكه شخصيات روايتها في واقعها الاجتماعي المحكوم بظروف البيئة المعقّدة وتقاليد المجتمع وأعرافه وقيوده وتناقضاته، التي تُفرض على الفرد منذ خروجه إلى الحياة.

«زند الحجر» من هذا المنظار، سيرة «الكل» في «واحد»، يدفعه التمرد إلى مفارقة مسقط رأسه في إحدى قرى عكار المتاخمة للحدود السورية مرتحلاً إلى طرابلس هرباً من تسلّط «الشيخة سعاد» التي هي والدته ليصنع مصيره بنفسه بعيداً عن وصايتها المباشرة.

ومن هنا تبدأ الحكاية.

ولعل أهم سمات هذه الرواية أنها تستند إلى رؤية فنية واضحة المعالم، تعكس وعي كاتبتها وإصرارها على إبراز ملامح هويتها

الفكرية والاجتماعية، وإلمامها بشروط العمل الروائي ومنهجيته ومسالكه ومراميه وأبعاده.

تدور حوادث «زند الحجر» في طرابلس حيث تتعقب الملل خطى شخوصها بعين المراقب، وتترصد حركتهم خطوة خطوة متوغلة وإياهم في أحيائها الشعبية وحاراتها القديمة بأزقتها وشوارعها الضيقة وبيوتها المتشابكة، التي تنفتح نوافذها بعضها على بعض، كاشفةً عما يقبع خلفها من نفوسٍ معذبةٍ وشقية وأحلام محبطة تختنق في ظلمة تلك الزواريب، حيث تنحبس الأنفاس وتنسد مجاري الهواء وتنكفئ الشمس وتسيطر الظلال.

في هذا العالم الضيق، نقف وجهاً لوجه أمام مظاهر العوز والبؤس وظواهر الانسحاق وانفتاح جروح الغبن والإجحاف والسعي بأقدام دامية ومتورّمة لدرء الفقر وإسكات الجوع ولو بفتات رغيف! ومن أين يأتي؟!

إنه الصراع المفتوح على مصراعيه في «عالم» الحارات الضيقة التي تضيق فيها أسباب الحياة وتوصد أبواب العمل.

وما يزيد الصراع الاجتماعي مرارة هو تحوله من صراع المظلومين ضد الظالمين إلى صراع الإخوة-الأعداء والانقسام على أساسٍ مذهبي وطائفي تطاير شرره بين باب التبّانة وبعل محسن... ليسقط الفقراء جميعاً من هنا وهناك على جانبَي الخط الفاصل بين المنطقتين المتنازعتين، في مصيدة القتال العبثي وضحايا الصراع المفتعل!

وإذا كانت طرابلس قد تحولت، بنهرها أبي علي، إلى نهر اجتماعي كبير تصب فيه كل مشكلات نازحي الشمال الوافدين إليها بفقرهم المزمن ـ بحثاً عن موطئ قدم وبصيص حياة جديدة.. فماذا عن مصير بطل «زند الحجر» ابن عكار في «تغريبته» الاجتماعية والوجودية والإنسانية في أشد البؤر احتقاناً اجتماعياً في طرابلس؟!

ليت الزمان قصر عامر كي أعود إلى عصر عاش فيه الفقراء ملوكاً واختلطوا بعامة الناس، فكانوا كالشمس المشرقة بما... امتلكوا من قدرة على العيش بفرح .. إلى كل من ماتوا في حارة البقّار أو التبّانة أو جبل محسن، عطور الياسمين تلك الزهرة التي ملأت حارتنا بالبياض كصخرتها البلاطة الشهيرة، التي أزيلت أو استؤصلت من دون إذن من الأطفال الذين كانوا يتزحلقون عليها في الأعياد... إلى أرواحهم جميعاً المحبة والسلام.

إلى كل الذين هاجروا من لبنان من الطوائف والمذاهب كافة، وإلى الذين عشقوا تراب لبنان من اليهود والمسيحيين والمسلمين ومن الأديان كافة أقول لهم: الأرض جميلة بزهورها من الأنواع والألوان كافة، والسماء تزدان بنجومها الصغيرة والكبيرة من كل الأشكال والأسماء والألوان، والإنسانية الحقة هي حب الحياة ومقاومة الأعداء بالحسنى وبالصبر على الأذى ومعالجة الأمور بالحكمة للوصول إلى السلام.

الحياة دراما قصيرة مركبة من حيوات الكثير من الأشخاص الحقيقيين الذين جاهدوا وتركوا آثارهم. إما عبر جينات بشرية تتكاثر بتوارث مهيب، وإما عبر أقوال وأفعال تجسد كينونة الإنسان ثوابته وتغيراته، فعذراً من مليكتي التي زرعت بي جينتها الوراثية ومنحتني الحياة، إلا أنني ما زلت عالقة في حبل سري يجمعني مع.. أبي.

الإهداء...

كل لحظةٍ في عتمة الليالي، أحتاج إلى احتضان الصوت الصوفي الدافىء الحنون في بحّته والقوي في قسوته؛ لم أؤمن يوماً أن القسوة تنجب السعادة، ولم أشعر بأن قسوة الأم كالحجر الذي يتفجر منه الماء، لأنها تحاول العطاء بصمت لمن خرجوا من رحمها وترعرعوا بين يديها كسنبلة قمح كلما أينع ثمرها حصدتها لتثمر من جديد.. لك أمي أهدي روايتي « زند الحجر».

الفصل الأول

زند الحجر

حاولت إعادة الحكاية كلها التي رواها أبي لي منذ البداية لأستكشف تلك النقاط التي بقيت مجهولة في ما رواه، ولم يسترسل بما يكفي لأعرف الكثير من التفاصيل، التي بقيت مبهمة نوعاً ما أو لم يترك فيها تفاصيل امرأة هي عفاف، وغياب بعض ممن تركهم في الكواليس، والسؤال الأهم لماذا رفضت عفاف الزواج به. إذ لا يمكن لأي امرأة تعشق رجلاً أن تختار البعد عنه، ولو في ذلك موتها. كان يقول لي: «لا يجوز يا ابنتي إكراه المرأة على أي رغبة تشتعل في الرجل، لأنها حينئذ ستنفر منه وتختار الرحيل ولو كان يمتلك كنوز هارون». أيعقل أنها لم ترغب في الزواج برجل متزوج أو فقير، أم أنها خافت أن يعرف من تكون، وأنها عازفة كمان تهوى الموسيقى، وهي من نشأت في حي فقير يستيقظ سكانه على مطارق الحديد وأصوات الباعة، أم أنها أرادت صحبته لوسامته وعشقه للحياة على الرغم من ظروف الحياة الصعبة التي عاشها؟ حديث نفسي هذا كاد يسبب لي الجنون. إذ لا يمكن أن يخسر الإنسان من أحب وسط غموض لم يتكلل بالوضوح. يبدو أن

أحجية قصة الحب بين أبي وعفاف تشبه قصة القتال بين جبل محسن والتبانة في حارة التنك، تلك الحارة التي تمسكت بها الحاجة نورا، عمة أبي حتى الموت. ولم تتركها إلا قبل حرب أبي عمار، أي قبل موت عفاف أو الأحرى قبل اختفائها بقليل. إن علو النفس الإنسانية في غطرسة اجتماعية تسبب للكثيرين الإحساس بالدونية التي تثير زوابع الصراع الذي لا ينتهي.

جلست على سريري والعتمة تلفني كغيمة فتحت نوافذها لتخيلاتي وبدأت أحاول استخراج رواية أبي بإمعان لأحدد النقاط السلبية والإيجابية في كل ما رواه لي، أو الأحرى لأعيد رؤية عفاف التي تركت في نفسي شغفاً إلى معرفتها أكثر من البحث عن هويتها من هي؟ من تكون؟ أين تسكن ؟ أحسست بالشك، فإن كانت من سورية فعلاً فكيف وصلت إلى لبنان؟ من هم أقرباؤها؟ لماذا لم ترافق أبي إلى قريتها في سوريا لتتزوجه وتعيش معه بسلام؟

بدأت منذ الولادة لأستطلع الأحداث الحياتية التي مرّ بها منذ صرخت عائشة صرخة الولادة، واسترخت يداها لتنظر إليه النظرة الأخيرة، كأن نوراً خرج من جسدها، فكان الموت الذي أضاء روحها وحملها بعيداً، بعد أن زحف اليأس إليها من زوج لم يعطها من الحب إلا جسده الثقيل، وصندوقاً ليلياً يشبه صندوق الفرجة بفتحاته الدائرية، محملاً بالنساء اللواتي تسمع فحيح أصواتهن وهي تتلوى في فراشها من أرق يدب في عروقها واشتياق إلى غمرة حنان من زوج ينام في

غرفة أخرى مع جنياته. كأن عمرها شريط من ذكريات مرّ في لحظة ولدت فيها روح وماتت روح..

روح حملت على الأكف جسداً، وجسد سيحمل على الأكف من غير روح..

صرخت الكوشارية والعرق يتفصد من أنفها الصغير: «يا الله عائشة أيعقل أن تموتي»!!..

بدأت تصفعها على خدها كمجنونة تخاف الصراخ والعويل والجسد المتراخي يتزلزل من صفعات لن تعيد الحياة إليه بعدما بدأت البرودة تتسرب إليه مع كل صفعة يتلقاها الوجه الشاحب بقوة من كف ما زالت رائحة الولادة عالقة بها. علا صراخ الكوشارية وتبدّلت الفرحة بكاءً وعويلاً.. وازداد في الخارج ضجيج النسوة اللواتي اجتمعن لحضور ولادة عائشة ومساعدة الكوشارية في التحضيرات لاستقبال المولود الخامس، الذي أرادت إنجابه رغم تحذيرات الكوشارية لها من خطر الحمل هذه المرة لضعف جسدها المترنح ولونها الشاحب والفقر الذي تعيشه مع أولادها في هذه الكومة من الحجار القديمة، التي تتشقق كل مرة تلد فيها وكأن حجارة الغرفة تتشقق جزعاً من قوة صبر عائشة على الحياة وسط هذه الرؤوس، التي بدأت تترنح حزناً مع بكاء المولود الجديد الذي خرج إلى النور بعد أن أطفأت عائشة مصابيح دنياها.

بدا البيت الفارغ من رائحة الحياة مشتعلاً بالجيران وبرائحة

الحناء والكافور والحضور في صدمة مرسومة على الوجوه الكئيبة؛ فالنساء اللواتي مارسن الثرثرات الصباحية عن عبدالغفور وزوجته عائشة أمطرت عيونهن شلالات لغياب امرأة لطالما دافعت عنه بقولها. «رجّال تعّيب كل النهار بيبرم على إجريه يحق له ما يفعل».

اشتعلت القلوب حزناً وسمع صوت فاطمة ابنتها البكر ذات الأعوام القليلة التي سمحت لها أن تدرك النساء...

بدا البيت الحجري القابع على كف نهر أبي علي بزواياه الضيقة حزيناً على صرخات الحياة والموت التي تتصارع بين بداية ونهاية، فما بين بكاء الأولاد والأهل على موت مفاجىء وبكاء المولود الجديد وقفت فاطمة بصوتها المبحوح الذي يئن كناي يلفظ ألحانه الأخيرة، كقطعة قماش مبلولة متهدلة من ثقل أرخى عليها همومه. أغمضت فاطمة عينيها وتمنت أنها لم تولد لتكون يتيمة مع إخوة ثلاثة ومولود جديد ينام مطمئناً على صندوق خشبي مبطن بأقمشة جمعتها عائشة لتجعلها شرشفاً سميكاً لسرير من صنعها. مولود بث وجوده الخوف في قلب فاطمة من يتيم مولود بلا أم وأب تطن لياليه بالقهقهات..

انبعثت رائحة الموت من فراش أمها والنساء في ذهول شاردات بوجه امرأة غابت الروح عنها كما غابت عنها السعادة في الحياة، ومن صدمة ولادة غسلت جسد عائشة بماء الحزن، وبكفن لم يكمل لفلفة صاحبته التي تزينت به لترحل، وكأنها لم تولد إلا لتنجب الأبناء

وتمضي تاركة فاطمة بين يدي القدر الذي تلطف بها وحملها إلى برزخ ما ورائي ربما سيكون رحيماً بها.

لف الحزن البيت الحجري الذي يترنح عند هدير الشتاء تحت أي عاصفة قوية قد تتركه بين طوفان آخر لنهر أبي علي المنساب كشريان مائي يمنح السويقة عبق التاريخ القديم، وكأن عبدالغفور زوج عائشة أبرم عقداً مع عزرائيل، ليقبض الروح التي لم تعشق سواه، فانتظر رحيلها ليعود إلى لياليه التي ترملت فيها عائشة، وهي في تقلبها المؤرق والموجع تتخيل الغجرية القابعة في صندوق زوجها. لأن فحيحها الليلي يثير ضحكات عبدالغفور، فتصمت وتكبت وجعها لتضم طه الصغير والدمع في عينيها ينسكب كجدول ماء رقراق دافىء يروي بملوحته مخدتها المعجونة بأسرارها التي تحادث بها نفسها..

ذكريات تقسو على قلب فاطمة الصغير وعلى رحى حياتها التي لم تتجاوز عمر الربيع، ولحظات الليل التي تخفي بكاء أمها لن تسمعها مجدداً في هذه الحياة التي اختارت لها موت أمها، وهي مازالت في مرحلة التحول إلى عمر النساء. بدأت مراسم الدفن الأولى بدخول المغسل وأصوات الأدعية والتكبير ترتفع ويرتعد منها جسد عبدالغفور الذي بدا كفاطمة يهتز مع كل تكبيرة أو دعاء، كما تهتز هي من أيدي أطفالها الذين يحاولون إيقاظها كي تفتح عينيها وتدب فيها الحياة من جديد. دنت منها فاطمة ورائحة الموت كأنها تخرج من خلاياها في منتصف شتاء حمل معه الخوف من المجهول، لامست جبينها البارد

وهي على المغسل، لتسكب عليها أولى قطرات الماء كما هي العادة في غسل الميت، القطرات الأولى تسكب من أيدي الأبناء على رأس الميت، وانهارت فاطمة راحلة في غيبوبة لم تستفق منها إلا وأمها في قبر رحل عنه آخر المعزين بامرأة صرخت مع مولود منحته الحياة ورحلت. وكأنها هي التي اختارت الرحيل الذي خطفها من دون استئذانها من بين أولادها الذين أحسوا أنهم كورقة خريف سقطت من شجرة زادها الاصفرار شحوباً كغروب شمس لن تشرق وتعلن بداية يوم جديد.

لم يستطع عبدالغفور أن يتشح بالحزن طويلاً، فما عاد الارتباط بامرأة يوجب عليه الالتزام بأشياء تقيده، بل أرخى لضحكاته العنان وهو يدندن أغنية «كارم محمود» (على ورق الورد حكتبلو على ورق الورد) بعد أن لملم شتات الحزن الذي لم يتخط الساعات في اليوم الأول، وربما! وعد نفسه بمغامرات تفتح له الأبواب أمام الحرية بشكل أوسع وبحرّية لا قيود امرأة فيها، وزال الحزن قبل اليوم الثالث لموتها مع حلق ذقنه الذي أزعجه وهو يتأمل نفسه في المرآة الصغيرة، التي يحتفظ بها في جيب قميصه. وضع في جيوبه حبوب الهيل التي تثير شهية من حوله لشرب القهوة، تاركاً حبة هيل في فمه يمضغها بتلذذ لتتعطر أنفاسه. سكب ملعقة من زيت الزيتون على كفه ومرغ بها شعره الذي بدا لامعاً كأنه حذاء من الجلد الأسود لرجل غني ببريق يعكس الضوء. أمسك المشط الصغير ومرره على حاجبيه ومن ثم

شاربه، وكأنه يشذب الأعشاب الدقيقة في حديقة حبقية لبيت واسع، وضجيج الأولاد يعم الغرفة التي بدت كأنها بسطة لمحل الثياب المستعملة. فتش عن الراديو بعينيه المرعبتين القاسيتين، ففزع طه عندما التقى نظره عيني أبيه، وكأنه يبحث عنه ليجلده كالعادة، فانزلق تحت غطائه كحلزونة تخاف أن يلتقطها أحد في يوم شتاء ماطر. التقط الراديو الصغير من تحت كرسي قرب الباب، وفتح الزرّ الصغير ليبحث عن إذاعته الصباحية، وأغاني ناظم الغزالي التي اعتاد سماعها قبل أن ينطلق إلى عمله في السويقة تحت القنطرة القديمة أمام العقد الأثري قرب قلعة طرابلس حيث ضجيج الباعة يسمح له بالغزل بامرأة جميلة أو فاتنة برزت معالمها الأنثوية من تحت الأقمشة السوداء والمناديل الشفافة، محاولاً التقاط رزقه من بيع القهوة أو من امرأة تمنحه طيبها لليلة واحدة أو لعدة ليالٍ قبل أن يهجرها ليتمسك بتلابيب أخرى.

أنهى مراسيمه الصباحية وحمل مصبات القهوة الساخنة التي تركها تتجمر، لتكون بنكهة مطيبة بالهيل بعد أن اشتد غليانها على نار الجمر الهادئة. قهوة عبدالغفور المشهورة في السويقة ليست وقفاً على الرجال، بل على النساء اللواتي يتسابقن أيضاً على شرائها لتقديمها في ثرثراتهن الصباحية أو حتى لاستقطابهن في محاولة للقائه لجماله، ولسلاطة لسانه التي تجعلهن في شوق إلى استفزازه أكثر.

ترك الباب الخشبي المعلق مفتوحاً وهو يهتز كأنه يصفق ابتهاجاً بخروج عبدالغفور، وخرج مع مصبات القهوة لامع الشعر متهرىء

الحذاء يجرجر بنطلونه خلفه وقميصه مفتوح الصدر، وكأنه ربان سفينة يحمله الموج ويرجّحه بخفة، بل كأنه يتراقص على أنغام صوته المنادي على القهوة أو أصوات الفناجين التي تشبه أنغام راقصة تضع صناجاتها بين أصابعها. لم تكن فاطمة قد استفاقت بعد، رغم أن ضجيج إخوتها في الغرفة يشبه صليل السيوف في فيلم الرسالة الخالد حيث المعارك تحتدم مع الصبية؛ فشيطنات إخوتها لا يمكن أن تنتهي وأحمد لم يكمل العشر سنوات وهو الأخ الأكبر بعد فاطمة. دخلت الكوشارية من الباب بصعوبة بعد أن مالت إلى جانبها لتخطو بحزن عتبة بيت أختها عائشة. جلست على كرسي القش الصغير بين كومة من الثياب المتكدسة عشوائياً، وهي تبرطم بكلمات غير مفهومة بشفتين غليظتين كأنهما زهرة فم السمكة التي تزرعها فاطمة في علب من التنك القديم، بل كأنها توشوش نفسها بصوت كطنين الذباب الذي لا يهدأ في فترة ما بعد الظهر حيث ترمى فضلات الخضار وبقايا العظام. بدأت تمسح العرق عن جبينها وهي تنادي فاطمة بصوتها المرتجف؛ فأولاد أختها الصغار في حالة يرثى لها منذ تركتهم أمهم، أختها لم يمض الأسبوع الأول على موتها، فكيف سيمضي العمر بهم وما زالوا أطفالاً؟ شردت سابحة تتذكر أختها، دخلت المطبخ، وكأنها تقف في كوب ماء أو في صندوق ضيق، لتعدّ الشاي مع كعك حبة البركة الذي تصنعه للأولاد عادة كلما زارت أختها. مدت يدها إلى جيبها وأخرجت منه كعكة بدأت تتشممها كأن عائشة صنعتها اليوم، فانهارت دموعها

على خديها وعلا صوت بكائها، فانتبه الأولاد لحزن خالتهم التي تفتقد أختها. تحلقوا حولها ورؤوف في لفافته بين ذراعي فاطمة التي تضمه بكلتا يديها وهي نائمة.

لماذا البكاء يا خالتي؟ قال أحمد متأثراً والدمع يكاد ينهمر من عينيه. أنا لا أبكي يا خالتي، الشمس ضربت عيني، شمس الصباح تؤذي العيون، تركني الملعون إبراهيم بين بساتين الليمون ما إن وصلنا إلى طرابلس. الطريق طويل يا خالتي من عكار إلى طرابلس. فتحت فاطمة عينيها وقفزت قفزة واحدة اهتز منها رؤوف، ضمت خالتها وهي تبكي وتقول: سأموت يا خالتي دون أمي لا أعرف ماذا أفعل؟ ابقي معنا الله يخليك. ضمتها الكوشارية وأخذت تبكي معها، فبكى الأولاد بدورهم، في حين بقي رؤوف وحده بين يدي فاطمة نائماً في هذه الضجة الجنائزية. إلا أن فاطمة استدركت الوضع، مسحت دموعها ووضعت رؤوف في حضن خالتها، واستدارت نحو المطبخ الصغير المطل بنافذته على الغرفة لإعداد الشاي للخالة .

لن ينسى أحمد صباحات أمه الحنون وهي تغني بصوتها أجمل أغاني الصباح الخاصة بها «سمعت عنين الناعورة، وعنينها شغل بالي، هي عنينا على المي، وأنا عنيني على الغالي، أووف يابا»، أخذ يرددها بصوته المبحوح، لتصدح بها الغرفة المميزة بحجارتها المرصوفة التي تسمح له أن يخبىء بين شقوقها بعض القروش التي تصل إلى يده من تصليح الراديوهات المتعطلة، فقد تعلم تصليح الراديو بنفسه تلقائياً

بعد أن فشل عدة مرات واضطر إلى صنع الأكياس الورقية وبيعها، ليعيد ثمن الراديو الذي أتلفه لصاحبه. لكنه بعد فشل طال استطاع تخطي عقدة التصليح وأصبح بارعاً يقصده الناس من الميناء أو الكورة أو حتى أقاربه من عكار الذين يأتون لزيارة عبدالغفور وتصليح الراديو معاً، فكان يتأفف أحمد من هذه التصليحات المجانية التي تعيق حلمه الصغير بشراء بعض القطع المستعملة من الراديوهات القديمة ليستخدمها في التصليح الذي بات بارعاً فيه. نظر إلى خالته خديجة وأخته فاطمة مبتسماً لهما قائلاً: أنا سأذهب إلى عملي. ضحكت فاطمة وقالت له: ما شاء الله رجل أعمال والله!

لا تتمسخري يا فاطمة، قال أحمد لأخته وهو يحمل السلم الخشبي الصغير، وضعه وصعد إلى تخشيبة المطبخ، زاويته لتصليح الراديو حيث يرى كل ما يحدث في الغرفة ويسمع ما يقال، وهو في تخشيبة يتسرب إليها الضوء من شقوق السقف المتفسخ، الذي يكاد يقع على الرؤوس. لم تجد فاطمة ما يؤكل لإعداد ترويقة صباحية، فبللت قطع الخبز بالماء ورشت عليها القليل من السكر وقدمتها مع الشاي إلى خالتها وكذلك إلى إخوتها، واتجهت نحو رؤوف الذي بدأ بالبكاء. أمسكت قطعة الحرير الرقيقة ووضعت فيها بعض الحلقوم والزبيب المطحون مع التمر وعركتها بأصابعها، ومن ثم ربطتها على شكل إصبع صغيرة ووضعتها في فم رؤوف ليمصها وينام من جديد، فهدأ بعد أن استسلم لطعمها السكري، فما من صدر أم حنون يضمه

ليرضع منه حليب النمو العاطفي. دنيا دخلها بموت أم فقدها قبل أن يشم رائحتها.

- يا خالتي هالصبي لازم ياكل حليب حرام المصاصة بتمو عطول.
- ما في حليب يا خالتي لم أجد من تبيع الحليب قريبة من هنا.

قالت الكوشارية اشتري له لبناً من الدكان، وامزجيه بالماء النظيف بدل الحليب، قالت فاطمة: هل يعقل يا خالتي هذا.؟ قالت الكوشارية: نعم، اللبن مفيد للأطفال، وطالما لا يوجد حليب علينا استبداله باللبن. قالت فاطمة: والله يا خالتي لا أعرف كيف سيعيش هذا الصبي دون صدر أمه وبلا حليب.

قالت الكوشارية وهي تمسح أنفها بمنديلها المطرز: سيعيش لا تخافي، مدقوق اللوز أيضاً مع الحلقوم وماء الزهر مفيد له، سأحضر لك اللوز وماء الزهر وأرسلهما مع إبراهيم. قالت فاطمة دخيلك يا خالتي، لا ترسلي إبراهيم إلى هنا، أبي يجن منه ويغار جداً حين يراه. لأن إبراهيم ينظر إليَّ نظرات طويلة ما ناقصني يا خالتي، لا أريد غضب عبدالغفور الله يرضى عليك. أنا سأشتري له اللوز وماء الزهر، معي بعض القروش من الأشغال التي أبيعها للجيران. قالت الكوشارية: أنت حرة ما وقتها هلا نحكي مشان أنت وإبراهيم . وقفت الكوشارية وتركت كرسي القش يترنح من ثقلها بعد ساعات من جلوس شرب الشاي بورق الليمون، لم تخل من توصيات لفاطمة التي بدأت ترى

الحياة ساكنة، وكأنها لا تنام ولا تستفيق، بل دنيا ثابتة في غرفة ضيقة تعيش فيها مع أربعة أفراد هي الابنة الوحيدة بينهم. إلا أن محمود الصامت دائماً يجلس قرب النافذة المطلة على درج طويل تكاد عدد درجاته تصل إلى المئة، ويتأمل السماء والحمام الذي يطير ويغط بعد أن يرى قصبة تدور معلقة برأسها قماشة كالعلم، فهذا المشهد يعشقه ويتأمله طويلاً دون حركة بضع ساعات، ما كان يغضب فاطمة التي كانت تنتظر منه أن يتكلم أو أن يطلب منها شيئاً. حاولت كثيراً استفزازه ليصرخ أو يبكي أو يضحك. إلا أنه بجمود عينيه يظنه البعض كالأهبل أو المجنون الذي لا يتكلم أو يتحرك، لكن حالته الجديدة هذه زادت بعد موت أمه التي كان يمسك بثوبها وهي ذاهبة إلى السوق لشراء الخضار.

وقف عبدالغفور كعادته تحت القلعة قرب النهر والأسواق تعج بالزائرين من هنا وهناك، كلما شعر بحلاوة امرأة ملفعة بالسواد وتهتز كحبة الحلقوم وهي تمر بجانبه ازداد بريقاً، كأنه عاد إلى مرحلة المراهقة، أو كأنه يختار من بينهن الممتلئة أو المكتنزة لحماً من تصلح له خليلة الأيام القادمة. مرت عديلة متشحة بالسواد تحمل بيدها أكياس الخضروات والعرق يتصبب من أنفها الذي تدسه في كل شيء، وكأنها تبحث عن شيء مفقود دائماً. قالت لعبد الغفور: «يا عمتي شو هالبرينطين على شعرك ومرتك ما كملت الشهر؟». رد

عبدالغفور بسرعة «ليش هي كانت عايشة لتموت ما هي كانت ميتة». غرزت نظراتها في عينيه، فخجل من عمته وهو يتمتم «شو بموت بعدها أنا يعني لينبسطو الناس»، ماذا تقول يا عبدالغفور؟ لا شيء يا عمتي تشربين القهوة؟ سألها وهو يحاول استرضاءها، قالت: «يا عمتي عيوشا ناطرتني لتعمل غدا». رد عبدالغفور العشا عندك اليوم. فوجئت عمته وتلعثمت وشعرت أنها وقعت في ورطة كبيرة، لأن لقروشها الغالية مكانة كبيرة في قلبها، وأدرك عبدالغفور معنى صمت عمته وهي تحمل الأكياس بعد استراحة خسرت فيها وجبة عشاء كاملة. لم تكن السوق كبقية الأيام في عيني عبدالغفور، لأنها بدت كحفلة كرنفالية تعيد إليه شبابه بعد أن استراح من امرأة لا هم لها إلا البيت والأولاد والنوم بين أولادها.

يا للأصوات الجميلة التي تترندح من آلة لم يفهم تركيبتها أحمد رغم أنه أتقن تصليحها بعد أن علا صوت الراديو على أغنية فهد بلان «من فوق ضهر الحصان»، وعلت معه فرحة أحمد بالراديو الذي بدأ يعمل. رقص فرحاً ونسي الحزن الذي يلف أركان بيت كالكوخ الصغير أو كأنه بيت ساحرة عجوز خرجت من حكايا مملوكية قديمة. إلا أنه من الحجر العتيق الذي صمد وقاوم طوفان نهر أبي علي، ويعلو بدرجاته أكثر من ستة أمتار، فبدا كأن حجارته تزف آخر أيامه، ولكنه بدرجاته الحجرية كلوحة انتزعت من جدار كهف قديم. حمل الراديو ونزل بسرعة على سلمه الخشبي تاركاً باب التخشيبة مفتوحاً، والسلم

يرتجف مكانه كعجوز لا يتكىء. خرج ليسلم الراديو إلى صاحبه ويأخذ ثمن تصليحه. نادته فاطمة فلم يجب تاركاً لنظرات محمود المتجمدة دهشة الخوف المتسمرة في نفسه منذ يوم وفاة أمه، وكأنه يخاف رحيل كل من حوله في كل لحظة.

لم تكن أمسيات عبدالغفور ما بعد منتصف الليل خالية الوفاض. إذ تلتحم الأشواق مع التعب بعد وقوف طوال النهار في ترقب وحركة ليصبح الكائن الرجولي كثمرة الليف الخضراء، التي تحتاج إلى تدليك وتقشير لتصبح لينة. نسي عبدالغفور بعد هذا القدر الخرافي من القهوة التي شربها اليوم دعوة العشاء التي فرضها على عمته، ولكن الليل سيغادره في هذا الهدوء المهيب الذي يلف الشوارع الضيقة ما إن ينهي مهمته المعتمة، فكيف سيطرق الباب على عمته التي تنام بعد صلاة العشاء مباشرة. وحده هدير نهر أبي علي يطوي ضجر صمت الليل وصوت الحذاء الذي يجره، كأنه يجر أكياساً من ورق متهرىء. ضحك عبدالغفور في سره وهو محني الرأس يفكر في مسيرة حياته التي بدأت بموت زوجته، فهو لا ينتمي إلى هذه الأسرة التي أنجبتها عائشة الجاهلة بتأنق الرجل وسد حاجاته برأيه، هي تفتقر إلى أحاسيس المرأة. كان صاحبنا يفكر كيف سيدخل البيت الذي يعج بالأولاد من دون امرأة تزيل عنه تشنجات يوم محمّل بضجيج سوق الخضار ورائحة الخضروات الفاسدة التي ترمى على أطراف نهر أبي علي.

إن أراد الإنسان رغبة ما ومنحه القدر رغبة أخرى، فلا بد أن تتحد الحواس، لتنتج معادلة مرضية لكلا الطرفين. وصل إلى عتبة البيت

حيث وضعت عائشة المبروكة نضوة من النحاس كدرع وقاية من الحسد. نظر من النافذة المتشققة كلص يتسلل إلى البيوت مستكشفاً الداخل بنظرة سريعة. كانت فاطمة تضم رؤوف بين يديها وأحمد يضع قدمه على رأس محمود المحشور بينه وبين طه. وضع مصبات القهوة وتسلل إلى الخارج مجدداً مهرولاً نحو بيت نعمات عبر زواريب حارة الأميركان أو بالأحرى اتجه نحو حارة التنك، والعتمة تشتد كلما مشى متوغلاً بين بيوت التنك التي تمتد عشوائياً بين أشجار الزيتون، لكنه سمع قهقهات نعمات، فأدرك أن ضيفها اليوم من الذين يتم الاحتفال بهم حتى بزوغ الفجر، ولا مفر من البقاء وحده الليلة. اتكأ على شجرة زيتون هزيلة بعد أن لف قروشه بقميصه ووضعه تحت رأسه كوسادة ليغفو ما تبقى من لحظات ليل تمنى أن يمضي دون عودة، حالماً بنعمات ورقصها الجميل.

- هيه يا زمن وين إيامك يا صندوق العجايب معك قرش بتسوى قرش ما معك قرش ما بتسوى بصلة، والله الك وحشة يا عائشة على القليلة كنت ستر وغطا على صناديقي.

تأمل النجوم البعيدة واستسلم للنوم وهو يداعب شعيرات صدره الخريفية التي أنهت ربيعها بسرعة دون الإحساس بلذة شباب فر منه بين زحمة الأولاد. غفا وهو يحلم بنعمات التي انشغلت عنه الليلة بزبون عائم على قروش من نوع آخر على ما يبدو، وبرد الليل في القبة يختلف عن حر الصباح.

لا تهرب أيها الليل بعيداً، فما زلت أحتاج إليك لأخفي حزني بعد رحيل أمي. ناجى محمود الليل، لأنه لم يستطع النوم بعد ضربة قوية أصابت أنفه، وهو يغط في نوم عميق على فرشة واحدة مع أخويه أحمد وطه. تسلل خلسة إلى الخارج واستلقى على الأرض قرب البركة الصغيرة واضعاً كفه تحت رأسه. كان محمود ذو العينين الناعستين بارعاً في تصليح الساعات التي لطالما كان يلملمها من هنا وهناك، ويجمع قطعها التي يحتاج إليها في التصليح. إلا أن ذلك اقتصر على الجيران والأصحاب وأبناء الحارة التي يعيش فيها وغالباً ما يدفعون له إما بيضة وإما قرصاً من البسكوت والحلقوم، وإما صحناً من المعجوقة إن حالفه الحظ، ولم يدرك أن أنامله كانت مرنة ما يكفي لتصليح أدق الساعات.

في ساعات الصباح الأولى اقتحمت الحاجة نورا بيت عبدالغفور ضاربة بعصاها أسفل الباب الخشبي كأنها رفيق درب يؤنسها وتتكىء عليه ليساعدها في تنقلاتها المفاجئة، كأنها قرعت طبول شهر رمضان، وهي تودعه أو كانها تستقبل العيد بكثير من التأفف والتضجر من هذا المشهد الذي يزعجها رغم قلة زيارتها لبيت عبدالغفور، وكي لا تسمح له بالاستعداد لزيارتها؛ فالمفاجأة لها مفاعيل حضور الضابط إلى فوج في المعسكر الفوضوي، فهي لم تر الأولاد منذ أن ماتت عائشة التي بكتها بشدة لطيبة قلبها وحبها لعبد الغفور، الذي لا يستحق هذا

الحب، ولطالما تعتز بهذه العصا التي تسير معها، فهي مدمنة غرزها في الأرض، وكأنها تحاول إشعال شرارة وصولها إلى المكان لاستكشاف بيت عبدالغفور بعد موت صاحبته أو ربة الأسرة الحقيقية لهذا البيت، الذي تخاف اختلال توازنه. استيقظت فاطمة مذعورة، وكذلك أحمد وطه ومحمود. لكنها اتجهت نحو رؤوف لتنظر إليه بعينين جامدتين أخافتا فاطمة التي أحست أن زيارة العمة ما هي إلا لتنفيذ مهمة واحدة هي أخذ رؤوف منها، فضمته إلى صدرها، كأنها تحاول استرجاعه من نظرات عمتها التي حملقت فيها بدهشة وعصاها تتقد كزند الحجر، لتشعر بشرارة النيران التي ستؤدي إلى ما هو أعظم من موت أمها. فعصاها هذه دليل رضاها أو غضبها.

- لن أعطيك رؤوف يا عمتي.
- يا للهول، بعد غيابي طوال أشهر هذا ما تقولينه.
- لأن زيارتك على ما يبدو فقط لأخذ رؤوف مني.
- أين عبدالغفور؟
- منذ توفيت أمي وهو ينام خارج البيت.

وهل هذا يسمى بيتاً؟ هذا خرابة، مدت يدها إلى جيب ثوبها الأسود وأخرجت بعض القروش لطه الذي لا يشبع من طقطقة الحجارة، ليحضر ترويقة حمص وفول للجميع. لكن طه هرب من فتحة الباب الخارجي، لينجو من أسئلة عمته التي لا تنتهي تاركاً أحمد يقف مستسلماً بين يديها وهي تصرخ.. يا ولد لا تهرب. بات

الصباح في بيت عبدالغفور ملتحماً بسوق الخضار بين صراخ العمة نورا وبكاء رؤوف وأصوات الباعة في الخارج. بدأت فاطمة تطوي الأغطية والفرشة المحشوة بالثياب العتيقة التي ينام عليها إخوتها، بينما العمة نورا تداعب رؤوف الذي هدأ بعد نوبة بكاء انتهت بمصاصة مليئة بالحلقوم واللوز وماء الزهر، ليسترخي مانحاً جسده الصغير لعمته نورا كي تتفقده كأنها طبيب أطفال يزوره لأول مرة.

يا لهذا البيت الأدكن والمتجهم: فتحت شباك الغرفة المطل على الدار لتدخل الشمس، كأن من فيه من الأموات. تفقدت الحاجة نورا البيت تاركة لعصاها ملامسة الأواني النحاسية المرمية في أطراف المطبخ الصغير، والأغطية المطوية منها والمرمية على الأرض، وبقية حاجات البيت المتهرئة من وسائد وسجادات وكراسٍ خشبية. البيت يحتاج إلى نفض من غبار الفقر والتعتير. كيف يعيش عبدالغفور في هذا البيت؟ كأن هذا الرجل ليس ابن الشيخة سعاد، يا إلهي الفرق بينه وبين أبي أحمد كبير وكبير جداً!

- وما حيلتي أنا يا عمتي؟
- لا شيء يا فاطمة. لا شيء.
- منذ صغره وهو متمرد على كل شيء إلى أن رحل إلى طرابلس وهو في العشرين من عمره.
- لماذا يا عمتي؟
- لأنه على خلاف دائم مع الشيخة سعاد ولا أعرف لماذا؟

أمضت العمة يومها في بيت عبدالغفور محاولة الوقوف قرب فاطمة التي رفضت أن تعطيها رؤوف ليعيش معها أو أن تذهب هي ورؤوف مع عمتها، لأنها لا تريد ترك البيت وإخوتها من الصبية الذين ما زالوا بحاجة إلى رعايتها. فالصبي كائن فوضوي لا يستطيع حتى إعداد الطعام لنفسه. هذا ما كانت تؤمن به فاطمة خصوصاً حينما يحاول أحمد إعداد البطاطا المهروسة عندما تكون مريضة في فراشها. إذ تجد قطع البطاطا المهروسة ملتصقة بجدران المطبخ أو متطايرة هنا وهناك. كأنه كان في معركة مع البطاطا.

اشتدت أوجاع عبلة زوجة أبي أحمد الأخ الوحيد لعبد الغفور الذي بقي في عكار قرب الحاجة، والمرضي كما تقول له أمه الشيخة سعاد التي لا تشبع من قراءة الموالد وحفلات الذكر والمجالس الصباحية التي كانت تقيمها لختمية القرآن؛ هي لم تحضر مأتم عائشة زوجة عبدالغفور ولم تزره في بيته المهلهل رغم مرور سنة تقريباً على وفاة أم الأولاد المبروكة عائشة، إلا أسابيع قليلة عندما تزوج عائشة أم الأولاد في البداية، وكانت تناديها مبروكة عيشة لأنها عشقت ابنها وهي تدرك أن ابنها عبدالغفور ولد شقي، فقد أتعبها بتربيته وكانت تقول للحاجة نورا: من لا يحمل الطاعة والبر لأمه لا يمنحها لزوجته، مسكينة عائشة.

لم تتحمل عبلة تقلص رحمها هذه المرة معتقدة أن مخاض

الصبي يختلف عن مخاض البنت، وأن اشتداده من اشتداد بنية الصبي وقوته بينما أبو أحمد في الخارج حيث الثلوج تتساقط على الليوان الحجري المرصوف وفق علو يسمح بالجلوس عليه، يمسح بأصابعه تارة وتارة أخرى يرتشف القهوة الباردة منتظراً بشارة الكوشارية.

رمى بعض الحطبات في الموقدة عندما شعر بالبرد القارس يضرب وجهه، إذ دخل لينتظر الولادة التي تشتد مع أصوات عبلة، فتوهجت النار أكثر وأصدرت أصواتاً شبيهة بأصوات عبلة التي تلهب قلبه وتزيده خوفاً، لكنه حمل هذه اللحظة ورحل عبر الذاكرة إلى لحظة مخاض افتقدت صراخ الولد في الياخور القديم، محاولاً استرجاع ملامح وجهها القمري وهو ينوص معلناً الاختفاء، فصرخ يلعن أبو الصبيان وأبو ساعتها الله يخلصك بخير يا عبلة! ترك ملقط النار من يده وخرج مسرعاً ليجلس على الليوان الحجري أمام البيت، والثلوج تتساقط وتزف لحظة دخول أحمد إلى الحياة، لتزغرد الكوشارية بعد ثوانٍ زغردات طالت كأنها تزغرد لوصول الحجيج من مكة، فانتفض كدجاجة مذعورة خوفاً من خسارة عبلة كما خسر بهيجة واقترب هامساً من فتحة الباب.

- عبلة بخير يا جماعة.
- نعم بخير هي وأحمد يا بو أحمد.

ركع أبو أحمد في سجدة شكر على الأرض الترابية التي تقطعها حجارة سوداء، قبل أن يتوجه إلى قبر بهيجة المعزول عن القبور

الأخرى قرب قبر الشيخ إسماعيل في قرية عكارية هادئة قريبة من الحدود السورية، لرغبة منها في أن تكون قريبة منه ولو مسافة بسيطة تفصلها عن القبور الأخرى، فناداها بصوت خافت: يا بهيجة ابننا أحمد قد ولد من جديد، فمتى سنجتمع معاً مرة أخرى؟.

لم يتجمد أبو أحمد بعد أن غفا ساعات على قبر بهيجة وهو يحادثها بشغف، وكأنها ما غابت عنه لحظة من زمن. غطى الثلج الجلد الصوفي السميك الذي يرتديه والتصق بعضه بالحذاء، فأدرك أنه غفا ساعاتٍ دون أن يشعر. ملأ رئتيه من عطر بهيجة، وكأنها هي التي تنفث الهواء البارد وانتشى من برودة لفحت روحه التي طابت لها الذكريات. مر بمسجد القرية في المرج الفسيح، فدخل ليصلي الفجر جماعة مع شيوخ القرية وشبابها من المصلين، ويطلب من شيخ القرية الكبير الشيخ رزوق قراءة المولد الليلة في المنزل بعد صلاة العشاء. وأعطاه ما في جيبه لإصلاح المسجد الوحيد القابع في المرج قرب بيت البيك ياسين المهجور.

فرحت الشيخة سعاد بالمولود، وكانت فرحتها كبيرة جداً بالنسوة اللاتي حضرن لإعداد ما يلزم، فأرسلت منذ الصباح الباكر سيارة حسن صبحة المرسيدس السوداء كنزه المتحرك الذي يجعله كالبيك حسن الرشيد عندما يجلس خلف مقودها، ليحضر أولاد عبدالغفور إليها كي تعطيهم مباركتها ويكونوا في المولد ليلة الأسبوع احتفالاً بوصول أحمد. لم يخالف حسن صبحة صاحب السيارة الوحيدة في

القرية، أوامر الشيخة سعاد التي اشترت له السيارة وتركتها له شرط أن يقوم بخدمة ابنتها نورا والبنات، وتوجه إلى الحاجة نورا لينقل إليها الخبر السعيد وأمنية الحاجة سعاد. كانت سيارته الجديدة تتسع لأولاد عبدالغفور، لكنه خاف من التوجه إليه دون إبلاغ الحاجة نورا بذلك. ارتدت ثيابها وتوجهت معه إلى بيت عبدالغفور، وبعد وصولها طلبت منه العودة بعد ساعتين.

اقتربت البقرة من عبدالغفور تتفقد العشب الذي يغفو عليه، وهو يتمدد كأنه مستلق على سرير ملكي؛ فأسعد أيام حياته هي تلك التي أمضاها بين السماء والأرض في القرية العكارية التي خرج منها هرباً من كثرة طلبات أمه اللجوج بالعمل مع أخيه أبي أحمد، فأحس بحرارة أنفاسها متمنياً قبلة اشتاق إليها، لكنه تلقى موجة رعب جعلته يقفز قفزة أمسك ظهره منها محاولاً إعادة فقرات ظهره إلى مكانها، وأعصابه التي ارتجفت من رعب كاد يصيبه بسكتة قلبية، فأمسك بعض الحجارة ليضرب بها البقرة محاولاً الانتقام منها لما أصابه من ذعر. توجه مسرعاً إلى البيت والشمس قد انتصفت؛ فاليوم على ما يبدو قهوة عبدالغفور لم تلامس النار ولن يرتشفها زوار سوق الخضار في طرابلس.

لا تحزن يا عبدالغفور، فما زلت شاباً والحياة ساطعه قال لنفسه ضاحكاً. دخل الدار ليأخذ مصبات القهوة، فسمع صوت أخته نورا تغني لرؤوف، فاهتز لصوتها خوفاً من أن تكون أمه معها. تقدم خطوة إلى الأمام وهو متردد في الرجوع إلى الخلف كي يهرب من رؤيتها. حدق إليها وتمتم أوف شو هالنهار زفت من أوله!

- أهلاً عبدالغفور، ما بدك تعقل إنت هل أخبر الحاجة سعاد أنك تترك عائلتك وحدها وتنام في الخارج الله أعلم بحضن مين؟
- لا دخيلك يا أختي ما ناقصني غضب الشيخة سعاد.

الحمص ساخن مد إيدك تروق معنا، جلس عبدالغفور بخجل يطوي الخبز بلهفة من جوع لم يشعر به إلا عندما شم رائحة البصل والخبز الساخن، سأل بسرعة عن أخيه والحاجة سعاد وطلب منها البقاء مع الأولاد، لكنها قالت له بأن زوجها يأتي اليوم، وبنات أخيه عندها ستأخذ فاطمة ورؤوف والأولاد إلى بيتها، لأن الحاجة سعاد ستقرأ مولد لأحمد ليلة الأسبوع، لكن فاطمة اعتذرت من عمتها بحجة أنها لا تستطيع ترك عبدالغفور وحده. حاول هذا الأخير إقناع فاطمة ليخلو له البيت مع امرأة ما. إلا أنه فشل في ذلك، بعد أن تذرعت فاطمة بالبرد الشديد في القرية، وهذا قد يؤذي رؤوف.

وقف عبدالغفور محاولاً الانسحاب ليصنع القهوة، كان خائفاً بل مذعوراً من بقائها في البيت فترة طويلة، لكن فاطمه كانت قد جهزت كل شيء لأبيها، فقد تعلمت منه صنع القهوة بامتياز بعد أن حفظت مقادير الماء والقهوة ومدتها على النار وكيفية تخميرها على الجمر.

- ما كنت بقيت بالضيعة بتعيش من مواسم أرضك أحسن من هالعيشة بهالنصف بيت؟
- يا أختي أنا متل العصفور ما بعرف عيش بين عيون ما بتسمحلي طير.

لم تستطع عبلة إخفاء فرحتها بالمولود الذكر بعد عدة بنات أنجبتهن واللواتي ينتظرن المولود الذكر بشوق أكبر، لكنهن غالباً عند عمتهن في طرابلس، فالحاجة نورا لم ترزق أولاداً واكتفت بتربية بنات أبي أحمد اللواتي دخلن حياتها معتبرة ذلك نعمة كبيرة من الله لأنها بذلك تمنح رعايتها لبنات أخيها كي يتفرغ هو لرعاية الحاجة سعاد، التي ترفض مغادرة بيت أبي أحمد لتعلقها الشديد به.

تذكرت ما كانت تقوله الشيخة سعاد عن أمنيتها بالمولود الصبي لأبي أحمد المرضي كما كانت تقول له. إلا أن ذريته من البنات، وهذا كان يسبب لها الحزن الذي ينتقل إلى أم أحمد أيضاً، لأنها كانت تخاف من زواجه بثانية لإنجاب الصبي. إلا أن أبي أحمد لم يكن يفكر في كل ذلك بعد موت بهيجة زوجته الأولى. ولولا إصرار أمه لما تزوج، لأنه لم يستطع نسيانها ولا لحظة واحدة من حياته، وهذا كانت تشعر به عبلة صاحبة العينين الخضراوين والوجه النحيل والجسم الممتلىء بتكوين جميل كأنها ما أنجبت الأولاد بتاتاً. لكنها لم تفصح عن هذيانه ببهيجة ليلاً خوفاً على مشاعر أبي أحمد.

لم ينم محمود تلك الليلة وهو يفكر لماذا ماتت أمه ولم تمت أمهات الأطفال الآخرين؟. أين هي الآن، ولماذا لا تأتي مرة واحدة وتضمه قبل الرحيل؟. أخذ السكين الكبير من المطبخ ووضعه تحت قميصه وقفز من النافذة المطلة على سوق الحدادين متجهاً إلى حارة التنك في القبة، التي تشبه غرف المستعمرات لجيش خسر الحرب، ليبحث عن غصن لوز يابس يسمح له بصنع عصا غليظة، لترافقه في كل مكان. لم تكن حارة التنك التي تعلو السويقة إلا بعض البيوت المسقوفة بالتنك أو المغطاة بالأشجار مع بعض الأبنية التي لا تتخطى أصابع اليد الواحدة ومن ضمنها بيت الحاجة نورا الفاخر الذي يعكس الاختلاف في الشكل والمضمون، وحوله بعض شجيرات الشربين التي لا تزال على عهدها القديم. وصل إلى فرن أبي عشير، فانبعثت رائحة الخبز قوية فاقترب أكثر وجلس على درجاته الحجرية الصغيرة يترقب ويتأمل بصمت كعادته كيف يضعون العجينة الدائرية في النار ويخرج الرغيف ساخناً.

ثرثرة أبي عشير الفران أشبه بالحكايات رغم أن محمود لم

يفهم ماذا يقول تماماً. إلا أن ما رسخ في رأسه الصغير يومئذ صناعة القدر، ظنه بداية كزورق يصنعه ويضعه على وجه الماء ليطفو، لكن أبا عشير استرسل في الشرح لعماله أو الأحرى للخبازين معه. القدر عملني فران وعمل رئيس الجمهورية رجل يجلس على كرسيه ويدير البلاد. لكني صنعت قدري واعتمدت على نفسي وادخرت من عرق جبيني واشتريت الفرن بأكمله «هيك صنعته». ضحك صبي الفرن ضحكة طويلة وقال لأبي عشير: «سأصنع قدري وأشتري هذا الفرن» فضربه أبو عشير برغيف خبز ساخن أصاب طرفه خد محمود الذي لم يشعر بسخونة الرغيف، ولم يتحرك والعيون جاحظة نحو أبي عشير. لكن صبي الفرن سأله ماذا تريد يا ولد؟ كرر سؤاله غير مرة والجمود يحتضن محمود وعينيه الجاحظتين، لكن صبي الفرن اقترب منه وهزه من كتفه..

وقف محمود مذعوراً وأدار ظهره يريد الرحيل، لكن صبي الفرن مد له يده ليصافحه، فتمنع محمود عن ذلك ممسكاً بأطراف أصابعه. إلا أن صبي الفرن أعطاه رغيف الخبز بعد أن وضعه بين يديه بقوة كأنه يفرض عليه أخذه، فحمله وركض نحو بيوت التنك. وسحابة الخوف بدأت تنقشع وهو يداعب رغيف الخبز بأنفه. إذ تقطعت أنفاسه من التعب كمن يركض لينجو من الموت في حرب ضروس. جلس قرب شجرة الزنزلخت العارمة بعد أن اخترقت رائحة الرغيف روحه وهو

يتشممه. أخرج السكين من جيب قميصه وأخذ ينظر إليها وهو يتلذذ بطعم الرغيف الساخن. سأصنع قدري بهذه السكين. أنهى رغيف الخبز وتسلق شجرة الزنزلخت وقطع منها غصناً وبدأ بتقشيره، ونحت العصا ولم يشعر أن الشمس بدأت تغيب؛ فالهدوء في حارة التنك هو هدوء الفقر الذي يبعد أهلها عنها طوال النهار، وفي الليل يجمعهم الشخير الصادر من الذين ينامون في الخارج لضيق المكان.

الوعد العاشر

مرت عديلة كعادتها من أمام عبدالغفور في طريقها إلى البيت تمشي بتثاقل، وكانت عيناها توحيان بالعتب، تتلفظ بكلمات عمة إلى ابن أخيها المشتاقة إليه، لتذكره بوعده العاشر ليتناول العشاء عندها، وهي سعيدة بارتشاف القهوة في استراحته الخشبية الموشحة بالمسامير النافرة كأنها خرابة بيت عتيق. وقفت تاركة ثقل أكياس أصابت يديها بتنميل بدأ يخف تدريجاً بعد أن تركتها على الرصيف الحجري أمامها، تذكر عبدالغفور وعده لها، فجدد وعده لعديلة بالعشاء عندها اليوم. وقد تلمس شغف عمته للعشاء عندها، مدركاً أنها تهتم بما سيحضره معه في السهرة كعادته.

تجهز عبدالغفور للعشاء عند عديلة بعد أن اشترى لها التمر المحشو بالزبيب والفستق الحلبي والجوز تاركاً لفاطمة بعض حبات لها ولإخوتها رغم أنه لا يحب حارة البرانية. إلا أنه مشى في زواريبها المعتمة بهدوء، وهو يمضغ حبة الهيل كعادته بعد الخروج من المنزل، والروائح تنتشر من البيوت ما بين طبخ وبخور وما إلى ذلك، وكأنه في شهر رمضان. فتحت له عديلة الباب مرحبة به خصوصاً، وفي يده كيس

ورقي يوحي أن ما بداخله رزقاً وفيراً. إلا أنه هدية حرزانة كما قالت بعد أن فتحت الكيس وتذوقت حبات التمر. يبدو أن الهدية تشكل المغنم الأساسي لزيارة عبدالغفور التي تنشدها منذ توفيت عائشة. صمت عبدالغفور بعد أن لمحت عيناه تلك الطفلة التي كبرت وبات جسدها اللامتناهي كحبة الرمان أو المرجان الأحمر.

آه يا ملظلظ خرجت من بين الشفتين الغليظتين بصمت أخرس ليوحي بالتحية للصبية التي أدارت له ظهرها ودخلت غرفة النوم تاركة الباب يلف غموضها الذي أثار عبدالغفور الذي لم يخسر تأييد عمته له للزواج مرة أخرى؛ إذ بدأت سمفونيتها الاحتفالية بعشاء عبدالغفور عندها بوجوب زواجه بامرأة تهتم بالأولاد وترعاه وتهتم به، لكن عيني عبدالغفور تختلفان عن سمعه، فهو ينصت إلى عمته وهي تحادثه من المطبخ وعيناه على عائشة التي بدأت تخيط الملحفة وأصابعها تتراقص مع الإبرة الكبيرة التي تلمع بين أصابعها ومسافة تفصلها عن عبدالغفور، الذي يراقبها من باب الغرفة، التي دخلتها وتركته مفتوحاً لتظهر منه، كأنها جنية ليل ساحرة بمفاتنها، بل كأن أصابعها تمارس ليلة حب مع إبرة وخيط. لم يشعر بغرابة العشاء المؤلف من الخبز والزيتون والجبنة البلدية المجدولة مع حبة البركة والشاي الساخن «ما في شي من قيمتك يا عمتي» الأوضاع تعبانة. ضحك عبدالغفور واستبدل سؤاله عن الأكياس التي تحملها كل يوم بسؤال آخر تجمدت له عمته، لكنها استرسلت بحديثها عن بيتها الذي بات كقطع الشطرنج

من تشقق حيطانه، التي تثير شفقة الأرض التي مازالت متماسكة لحسن الحظ.

«زوجيني بنتك يا عمتي» يبدو أن السؤال لم ينفع، والطلب مباشرة أفضل! أصابت عديلة دهشة جمود قبل أن تنفجر من الضحك ومن ثم أطلقت نظرة طويلة، تعجب لها عبدالغفور بداية، ومن ثم ضحك معها، فقالت بنت عنيدة شو الأمر بإيدي كل شب بيطلبها بترفضه اتفضل اسألها إذا بتوافق عائشة يلله على بركة الله. بتحكي جد يا عمتي؟ إي طبعاً عن جد كل الأمور يمكن المزح فيها إلا الزواج. لم يصدق عبدالغفور رغم أنه لم يحادثها منذ زمن لا يذكر متى رآها آخر مرة. ترك الرغيف على الكرسي الخيزران قرب صحن الزيتون، واقترب من غرفة النوم حيث عائشة وإبرتها رافعاً صوته بطلبه الزواج بها. نظرت إليه عائشة دون اكتراث وببرودة شديدة قالت: «نعم أتزوجك روح جيب الشيخ». إذا بقيت لبكرا إلغي الفكرة نهائي واحمد ربك واشكره أني وافقت وأحضر الشيخ بسرعة. ضحكت قبل أن تعطيه ظهرها بدلال ضخ الدم في عروقه وتركه في حالة شهوانية لا يحسد عليها، وتشنجات لن تهدأ إلا على يد نعمات الليلة. دخلت الغرفة متمايلة كزهرة الوزال، لتكمل الخياطة بنعومة أصابع غرزت إبرة في قلب عبدالغفور الذي انصدم وبدأت الوساوس في رأسه تدور كيف يمكن ذلك؟ ما الذي يحدث في بيت عمتي؟ عشاء وطلب زواج وعقد قران بدون شروط وسريع جداً؟ لململم شتات أفكاره بسرعة وقال لها ساعة وسأكون مع الشيخ هنا

استعدي. صدمة بدت كالحة على وجه عمته، لم تصدق ما يحدث، إذ كيف يمكن لعائشة فعل ذلك والموافقة بسرعة؟

انتظرا إلى الغد يا أولاد شغل مجانين هالحكي.

نظرت عائشة إلى أمها متحدية دهشتها. الآن وإلا انسوا الموضوع. لم يصدق ذلك عبدالغفور. مسح فمه بأصابعه المغمسة بالزيت ليفرك كفيه بعدها محاولاً إزالة رائحة حبات الزيتون ببنطلونه البالي، وتبادلا النظرات بجمود قبل أن ينطق بعبارة: الاتكال على الله يا عمتي. خرج من غرفة الشطرنج هذه متجهاً إلى بيت الشيخ إبراهيم الواقف على آخر درجات حارة البرانية عند الدرجة بعد المئة والسبعين حيث الباب الخشبي الموشى بزركشات جميلة ففتحت له ابنة الشيخ الكبيرة.

- أهلاً عبد الغفور خير شو القصة بهالليل؟
- الشيخ إبراهيم هنا؟
- نعم هو هنا.
- أريده لو سمحت.
- انتظر سأناديه.

وقف خارج بيت الشيخ إبراهيم ممسكاً أرنبة أنفه بعصبية يفركها تارة وتارة أخرى يعتصر أصابعه من لحظة عقد قران محاطة بالغموض. أطل الشيخ إبراهيم مبتسماً كعادته وسرواله الأبيض الداخلي يبدو كراقصي المولوية فضفاضاً.

- خير يا ابني.

- عمتي تريد كتب كتابي اليوم، ارتد ثيابك إلى أن أحضر الشاهدين.

فرك الشيخ إبراهيم ذقنه قائلاً: الآن يا بني يصعب ذلك، الوقت تأخر إلى الغد إن شاء الله. دخيلك يا شيخ بخاف العروس تغير رأيها الليلة يعني الليلة.

- الأمر لله لحظة كي أرتدي ثيابي وأحضر دفاتري.

سأحضر الشاهدين، أنتظرك عند عمتي.

إن شاء الله.

لم يشعر عبدالغفور أنه يمشي بين زواريب الحارة العتيقة في حرارة صيف اشتد قيظه، وكأن الطريق تمتد ولا تقصر والدرجات تكثر ولا تنقص. كان فيما مضى يقفز قفزاً وهو يتجه إلى مقهى أبي مراد، لكنه اطمأن لأن ضجيج مقهى أبي مراد ما زال كما هو يضج بالأصوات التي اخترقت سمعه، فاطمأن في غمرة حديث نفس تزف الأمل بالشباب، وهو يصعد درجات حارة البرانية وأنفاسه تتقطع متيقناً أنه سيجد الشهود بسهولة في هذا المقهى العامر بالرجال. مد يده مصافحاً أبي مراد الذي وقف احتراماً لعبد الغفور في محاولة لمعرفة ما الذي جاء به إلى المقهى وهو لا يزوره إلا نادراً. طلب منه شاهدين، شو القصة عقد قرانك على مين ومرتك ما كملت سنة؟ الموضوع لا يخصك يا أبا مراد هات شهود وخلصني. نادى أبو مراد بغضب رجلين يجلسان أمام طاولة قرب نافذة تطل على الأسواق يستمتعان بسماع

أغنيات راديو الترانزسستور أو الحكواتي الجالس بالعلبة كما يقول له أبو مراد. صرخ أحدهم ما بتزحزح قبل ما يخلص عبدالوهاب أغنيته، وضحك صديقه «هيك والله هيدي الدنيا هيك» سحبه أبو مراد من قميصه نحوه وقال له: يا قبضايات شهادة مستعجلة لأخيكم عبدالغفور تحركوا. «متل قدحة النار أنت وياه بسرعة» لم يستطع أحدهم المزاودة على أبي مراد، فأجابه «بأمرو معلم ما حكينا شي».

خرج عبدالغفور من بين هدير الأصوات المختلطة بأصوات الفناجين والأراكيل والغيوم الدخانية معهما متجهاً إلى بيت عمته في حارة التنك يتلمس بأنفه الروائح المنبعثة من هنا وهناك، شارداً في اللحظات الفجائية لهذا الزواج السريع ودون معرفة الحاجة سعاد ولا أخته نورا. لم تصدق عديلة ما يحدث، ولا تريد السؤال عن ذلك. لأنها لم تتخيل حتى أن ابنتها وافقت على الزواج أخيراً. لا يهم من يكون أو من هو، المهم أنها ستتزوج وتذهب إلى بيت زوجها لترتاح من همومها الكبيرة. عديلة لم تكن قادرة على البقاء في المنزل مع ابنتها الوحيدة. زوجها مات ولم يترك لها فلساً واحداً ولا حتى قرشاً بفردة كلسات. هكذا كانت تقول عديلة لابنتها: أبوك مات وترك فردة كلساتي فاضية لازم اشتغل لعيش. فمرض زوجها قبل وفاته ولم يترك لها إلا هذه الدار وكم دجاجة على سطح بيت يدلف أيام الشتاء.

حضر الشيخ إبراهيم الساكن قرب دار المفتي بدشداشته البيضاء وسبحته الطويلة التي تهتز تحت الدفتر الممسك به. يمسح لحيته بيده

اليمنى كأنه ينحتها بليونة ، جلس متربعاً على وسادة إسفنجية وأتم عقد قران عبدالغفور على عائشة بحضور الشاهدين في معزل عن عائلته، وبأقل الكلمات التي تقال في مثل هذه المناسبة؛ كل شيء انتهى بسرعة ولم يبق إلا دخوله على عروس تكبر ابنته بسنوات قليلة، اقترب عبدالغفور من عائشة ليقبلها قبلة العروس متجاهلاً عمته التي تحملق بهما، لكنها تراجعت إلى الخلف ممتعضة من رائحة الدخان المنبعثة من شاربيه. فهناك أشياء لا يمكن فعلها أمام الآخرين، خصوصاً إن كانت حميمة إلى درجة شهوانية عبدالغفور وشغفه بتلك الصبية التي بهرته وتم الزواج بها. كاد يجن من المنع المحكوم الذي يجب تنفيذه بشكل إجباري لا بد منه.

إلى الغد يا عبدالغفور غداً في بيتك.

- أتقولين الصدق يا عائشة؟
- ما هذا يا إلهي؟ نعم رتب بيتك وأخبر أولادك وغداً أذهب معك إلى قصر البيك عبدالغفور.
- تقصدين بيتنا يا عائشة.
- بيتنا يا عبدالغفور! قول علبة الحجارة المغلقة.

لم تزغرد عمته بل جلست تبكي كأنها تعيش لحظة زواجها الأولى، لأنها ستبقى وحدها في هذا البيت الذي يهتز على صوت رعد الشتاء أو على دق البوظة العربية التي يصنعها جارها أبو جابر المولع بمشاكسة عديلة. بدا أن كل شيء كالحلم أو كالكابوس استفاقت منه،

وقد تزوجت عائشة. بدت الوحدة التي ستعيش فيها بعد رحيل عائشة إلى بيت زوجها تعكس الانزواء والوحدة. لكن النساء اللواتي ترافقهن إلى حمام أبي العبد واللواتي ما زالت تخدمهن متمسكات بها، لأنها بارعة في خلق الأجواء المرحة لهن من غناء ورقص ونكات مسلية وحكايات قديمة . وهذا ما يجعلهن يتصارعن لوجودها في كل مرة معهن. ربما هذا كفيل بمحو وحدتها بعد رحيل عائشة إلى بيت زوجها.

بعد فترة قصيرة من دخول عائشة بيت عبدالغفور وصدمة الجميع بدخول العروس عائشة الثانية المنزل الذي لم تكمل أم الأولاد فيه السنة نمت عداوة بينها وبين الأولاد، وكأنها تريد لنفسها الانتقام من كل أحداث حياتها التي جرت بغموض لا تعرفه حتى أمها الأقرب إليها من أي إنسان آخر، لأن عبدالحميد لم ينس يوماً الوردة الصباحية على نافذتها فجراً عند عودته من جامع البرطاسي بعد صلاة الفجر. لكن ابن البيك لا يستطيع الزواج بها لأنه يمنع منعاً باتاً في العائلة الاقتراب من بنات الفقراء. لكن جمال عائشة في صمتها وشغفها للوقوف قرب النافذة عندما تشعر أن عبدالحميد سيقترب، لتثيره بدلعها وليونة جسدها الذي تستخدمه لتجذب نظراته نحوها، ليترك لها عطر نظراته من عيون سحرتها وجمود يصيبها بالغضب الشديد منه. لكن خوفه من رفض أهله الزواج بها تركه في حالة يأس كبيرة وتردد أصاب عائشة بجنون وهيستيريا دفعاها للانتقام منه بزواجها بعبدالغفور.

لم تتقبل فاطمة وجود عائشة في البيت لأن ضحكاتها في الليل

مع أبيها تغيظها وتبكيها أحياناً وتتركها في حالة اشمئزاز تبعدها عن أي تفكير في الزواج. ولاحظت أن عيوشاً تتعمد ذلك. رفضت حتى مناداتها بعائشة فلقبتها عيوشا. تظن فاطمة أن سبب موت أمها هو عبدالغفور لأن أمها كانت تحزن وتمضي ليلها تبكي وحيدة بينما هو مع صندوقه الذي هجره منذ وفاة أمها، ولم تدرك سر هجرانه الصندوق الذي كان يرافقه في أغلب الليالي، ليبقى معه في غرفة مغلقة ليلة أو ربما ليلتين! كان بعض الشياطين الذين أحضرهم لتموت أمها. وحده رؤوف الذي كان يخفف عنها حزنها لإحساسها المبكر بالأمومة، وهي تعتني به وتخاف عليه ربما أكثر من أمه، لعلاقتها الشديدة بأمها التي لطالما باحت لها بخوفها من الموت في هذا الحمل الذي أتعبها إضافة إلى حزنها من صندوق عبدالغفور. لأن الكوشارية حذرتها غير مرة بخطورة حملها هذه المرة لكنها لم تسمع تحذيرات أختها.

يبدو أن الأخـوة والأمومة أحاسيس تنتاب المرأة أكثر من الرجل، لأنها قادرة على الاحتواء لما لها من عاطفة. لم تشعر فاطمة باستفزازات عائشة لها، إلا أنها في سرها كانت تخجل من تصرفات عيوشا وتنتقدها خفية في حديث نفس تعيد من خلاله تقييم الأحاديث الجانبية التي كانت تحادثها بها عيوشا. رغم أن كيد عيوشا لم يهدأ، محاولة دائماً كسب رضا عبدالغفور لتتحكم في الأولاد أكثر فأكثر، ولتغمد سيف الحب في قلبها إلى الأبد بعد أن ترك لها عبدالحميد رسالة أنه لا يستطيع الزواج بها وأهله يرفضون تماماً زواجه من غير

العائلة البكواتية، المقيدة بتقاليد تنكية. هكذا كانت تقول عائشة في سرها، التقاليد البكواتية تقاليد تنكية مثل بيوت حارة التنك.

صعدت فاطمة إلى التخشيبة وطلبت من أخيها أحمد نقل أغراضه كلها إلى مكان آخر، لأنها تريد العيش في التخشيبة مع رؤوف حيث كانت تنام مع أمها عندما يحضر عبدالغفور صندوقه الخشبي. مبتعدة قدر الإمكان عن عيني زوجة أبيها التي تكبرها بسنوات فقط. امتدت التخشيبة إلى الخارج مع فسحة صغيرة يمكن فتحها وإغلاقها، لتكون كفسحة صغيرة تهرب منها فاطمة متى تشاء حين تشتد أحزانها أو إن أرادات قضاء حاجة سراً كشراء لوازم الخياطة التي كانت تقوم بها للجيران. لأن الدرويشة فاطمة كما كانت تلقبها عيوشا تسبب لها الغيظ كلما نظر إليها شاب ما أو ذكر لها عبدالغفور أن فلاناً يريدها زوجة، كانت سراً تقنع عبدالغفور بالرفض دون سؤال فاطمة. لأن رؤوف اعتاد أخته وحياته بعيداً عنها ربما تصبح في خطر، لأنها بدأت تشعر ببوادر الحمل، ولن تستطيع وحدها القيام بمسؤوليات العائلة.

استطاعت عيوشا بملامحها الملائكية الموحية بالوداعة كسب ود عبدالغفور. ففي فترة قصيرة أصبحت هي من تستيقظ صباحاً لإعداد القهوة وتجهيز المصبات والفحم وحبات الهيل، وتخفي من كميات مسحوق القهوة ما كان يحضره عبدالغفور لتبيعه للجيران أو لأمها أو حتى لعبدالغفور نفسه. جمعت في فترة صغيرة مبلغاً كبيراً بعد أن استسلم لها زوجها الشغوف بالنساء، إلا أنه ابتعد عن مصاحبة النساء

اللواتي ما زلن يحاولن جذبه. إذ أعادته الصغيرة عيوشا إلى مجده وصوابه بل وغروره الرجولي الذي يوقظ فيه شهوة لا تموت، لكنه لم يقترب من أولاده أو يحاول احتضانهم ولعقابهم أسرع من الثناء عليهم، وحين يغضب من محمود يناديه بابن الهبلة، فيبكي محمود ويهرب إلى ركنه تحت شجرة الزنزلخت لينحت عصا ويبيعها في اليوم الثاني دون أن يعرف أحد، إلا فاطمة لأنه كان يعطيها كل ما يدفعونه له من بيع كل عصا يتفنن في صنعها، لتضعها بين شقوق الجدار في التخشيبة، ومن ثم تشتري عند الحاجة الثياب لرؤوف وبعض احتياجاتها سراً من البائعات الجوالات بين البيوت.

لم يترك طه طقطقة الأحجار التي تصدر شرارة نار تشبه شرارة البرق في فصل الشتاء. هكذا هو غالباً عندما يمارس لعبة الإيقاع، وكأنه يثير زوبعة غضبه مع أحجاره التي تتطاير منها شرارة نارية، لطالما أحب أن يحرق بها المنزل الذي يعيش فيه، وخصوصاً فرشة أمه التي ينامون عليها، لأنها تختزن رائحة الموت البشع حيث رحلت أمه وتركته بين شرارات نيران عبدالغفور وغضبه، والآن بين يدي عيوشا التي يهرب من لسعة يدها. حاول طه أن يتخيل كيف سيكون شكل أمه وهي تكبر معهم مستعيناً بذاكرته الصوتية، مسترجعاً كلمات أمه عن الحياة الجميلة، التي تحمل في جعبتها الفرح رغم الحزن، الذي يشعر به الإنسان وأغانيها التي ترددها وهي تعجن الخبز أو تعدّ الطعام، والأجمل تلك التي كانت ترافق طقوس حمامه بالماء الساخن الذي

يتدحرج من جسده على أرض المطبخ الصغير. كرسي حمام خشبي وصوت بابور الغاز الذي تسخن عليه الماء وصابون زيت الزيتون. ما بين الأصوات والروائح يستنبش صورة الأم الحنون. رغم صغر سنه كانت تراه رجلاً يتأبط الجريدة مثل الأغوات، ويجلس على كرسي في مقهى صغير مثلما يجلس رشدي أباظة في الأفلام. كان راغباً في الالتحاق بثكنة الجيش، ولم يصدق يوم حلق ذقنه أول مرة أنه أصبح رجلاً وفي مقدوره خلال سنتين فقط الدخول إلى سلك الجيش اللبناني ليخدم وطنه، ويحقق حلم أمه في القراءة والكتابة بعد أن حفظ ربع ياسين عن الشيخ عبدالعليم الذي سخره غالباً ليحضر الخضار لزوجته إلى البيت، لأنه لا يستطيع دفع الشهرية لكنه كان سعيداً، لأن زوجة الشيخ عبدالعليم كانت كلما أحضر لها الأغراض من السوق تعطيه ربع قرش دون علم الشيخ طبعاً ليعطيه إلى فاطمة فيما بعد، فتشتري الخيطان لترقيع الثياب لإخوتها محتجة أن الجيران الذين تخيط لهم بعض الثياب يعطونها الخيطان التي تبقى، لأن عيوشا كما كانت تناديها لا تسمح لعبدالغفور بتبذير أمواله التي تجمعها لشراء بيت أكبر. لأن البيت صغير وأولاده لا مهرب منهم على ما يبدو.

قال أحمد لأخته في صباح يوم شتائي مكفهر إن البيت السعيد هو البيت الذي لا يحتاج أصحابه إلى رفع أصواتهم ليسمع بعضهم بعضاً، وبيتنا سعيد لأننا نصمت ولا نتكلم نهائياً خصوصاً بعد حضور عبدالغفور. لأن رؤوف وفاطمة في التخشيبة وأما محمود فغالباً ما ينام

تحت الزنزلختة، وطه يجلس في المقهى محاولاً تصليح الساعات لمن يرغب بأقل الأجور، ومن ثم يذهب إلى بيت الشيخ عبدالعليم قارىء الموالد في الحارة البرانية، ليحضر لزوجته حاجاتها من السوق. أما عيوشا وعبدالغفور فضحكاتهما وحدها تضج في البيت كأنها مسرح كوميدي تسمع عنه عائشة ولم تزره يوماً، أو كفيلم عربي ترى ملصقاته من بعيد عند سينما الدنيا في التبانة، ولا تحضره لأن البنات لا يحضرن السينما. هكذا كان يدس في رأسها عبدالغفور عندما تسأله، عن فاتن حمامة، التي يتحدث عنها، أو مريم فخر الدين وجمالها أو شادية وصوتها الجميل.

بدا عبدالرؤوف بأعوامه القليلة قادراً على مناداة فاطمة بأمي ومحادثتها عن تساؤلات تبكيها غالباً. لماذا لا نشتري البسكوت والحلقوم يا فاطمة؟ لماذا الأولاد الذين ألعب معهم يستطيعون شراء ما يرغبون فيه من الكعك وأنا لا أستطيع، فيسكت ويستسلم للصمت بعد أن يمسح دمع فاطمة ويشعر أن كلماته أبكتها. إلا أنه كلما حاول الاقتراب من عيوشا كانت تضربه من دون سبب، فيحاول اللحاق بفاطمة متعلقاً بذيل ثوبها وهي تنظف الصحون أو تغسل أو ترتب البيت لعائشة الحامل بالطفل الثالث لعبدالغفور ومصطفى قربها، وعلى يدها ياسين ترضعه أو تهتم به قبل أن تعطيه لفاطمة لتحمله حتى ينام.

- اعتقدت أنك تعرفين أنني سأشتري قريباً بيتاً كبيراً.
- لا يا عيوشا ومن أين لي العلم بذلك.

- قبل ولادتي سنكون في المنزل الجديد إن شاء الله.
- مبارك إن شاء الله.
- على أمل أرتاح من خلقتك بقى أنه ما في شي عريس يلمك ويريحني منك؟
- ليش حاملتيني عضهرك؟

أدركت فاطمة أنها تريد استفزازها لتجبرها على هجر البيت فيما بعد والرحيل نحو بيت الحاجة نورا التي تدلل بنات عمها أبي أحمد أكثر منها، فهن جميلات مدلالات في بيت الحاجة سعاد وأكثر رخاء منها. حملت مصطفى ودخلت به إلى الغرفة، لكنها لحقت بها وأكملت كلامها بغضب.

- أنت قبيحة جداً ما من رجل سيرغب فيك، يوم تتزوجين سيكون يوم عيد الأضحى بالنسبة إلي وسأنحر خروفاً من أجل ذلك.

كانت تتركها في ثرثرتها لتخرج ما في صدرها من كراهية سوداء تجاهها وتجاه إخوتها الذين لا تعرف كيف يعيشون حتى الآن؛ فالبركة ربما هي بركة الشيخة سعاد العكارية ابنة مشايخ عكار التي ولدت فيها، أو الحاجة الزعبية كما يلقبها عبدالغفور عندما يشتد غضبه من تفاهة الحياة التي أدخلته أمه الزعبية إليها عنوة دون الاكتراث له مانحة رعايتها ورضاها لأبي أحمد. إلا أن أحمد أصبح بارعاً في تصليح الراديوهات، التي يجمعها من هنا وهناك، ومن ثم يبيعها مع التصليحات التي كانت

توفر له المال الإضافي ليشتري بعض القطع الصغيرة التي يحتاج إليها للتصليح، ومحمود خباز في فرن أبي عشير القريب من بيت الحاجة نورا بين بيوت التنك الثكالى إلى جانب صنع العصي تحت الزنزلختة قرب الفرن، حيث يستنبش حكايات أمه وخصوصاً حكاية حديدان الذي يشاكس الغولة وينتصر عليها. وطه أيضاً يتقن تصليح الساعات التي كان معظمها من الماركات الكبيرة، لأنه كان يدور بين مقاهي طرابلس حيث يجلس الأفندية، وغالباً الأولاد لا يأتون إلى البيت إلا للنوم حيث لا مهرب من التسلل بعد صلاة العشاء كي لا تستفيق عيوشا، ويبدأ عبدالغفور بدروسه المحفوفة بالغضب ويغادرون صباحاً قبل أن تستفيق عيوشا وعبدالغفور. ويتناهى إلى سمعهم هدير ضحكات زائفة.

ازداد إعجاب عبدالغفور بعيوشا التي تعض على طرف شفتها الخمرية عندما يتغزل بها أمام ابنته فاطمة، ونسي أمر النساء اللواتي يتغزل بهن بزيادة العزف على الفناجين بين أصابعه التي تجيد مداعبة الشفاه ليلاً، كلما مر من بين نوافذهن المفتوحة على درجات حارة البرانية حيث مقهى أبي مراد الحافل بالرجال الذين يهتم بهم عبدالغفور، وغالباً ما يجالسهم مستمعاً إلى الحكواتي أو إلى الراديو ليلتحم معهم فيما بعد بأحاديث السمر اللطيفة على القلب، لأنهم أصحاب مكاتب في طرابلس ومؤانستهم في الليل تؤدي إلى الاستفادة منهم في النهار، ويستطيع إرسال طلبيات القهوة لهم متى أرسلوا إليه صبيانهم. لأن أبا

مراد يكتفي بالمقهى الرابض على كتف درج حارة البرانية. ولا ينازع أي قهوجي متنقل ثروته أو يوميته، فهو من القبضايات الذين يترفعون عن هذه الأمور، وجنته هي المقهى الذي يقصده الجميع.

لم تكن عيوشا لتنسى عبدالحميد، وهو الذي رحل إلى القرية بعد زواجها. إذ فقد الأمل برؤيتها بعد قراراها الحاسم والمفاجىء بزواجها بعبدالغفور. قالت له ذات مرة وهو يضع الوردة بخجل على نافذتها: «لا يحتاج المرء إلى قطع غصون الورد وهو يخاف من الأشواك، الأفضل أن يتأملها من بعيد إن كان يخاف قطافها، نصيحة مني يا عبدالحميد لا تشتر الورد بل اقطفه»، وضحكت ساخرة منه ومن مواقفه السلبية تجاه حبه الصامت لها، وهذا كان يشعل غيظها ويتركها في حالة هستيرية تكرهه فيها وتتمنى الانتقام منه في كل لحظة من بروده وصمته. لهذا تزوجت عبدالغفور بقرار لم يمكن تأجيله لحظة واحدة.

لم تهتم فاطمة بوحشية عيوشا التي تحاربها دائماً حتى في الكلام، ولم تحاول يوماً استفزازها، كانت على طيبة عالية وحنانها يغمر الجميع حتى من حولها، فالجيران نسوا اسمها فاطمة حتى كانوا ينادونها يا طيبة، وهذا كان يزيد من غضب عيوشا، ويجعلها تستعبدها حتى الرمق الأخير، لكنها لم تفكر لحظة واحدة أنها ستأخذ معها فاطمة إلى البيت الجديد، وأفكارها لم تجد الحلول لكيفية التخلص منها قبل أن ترحل من بيت السويقة هذا. جل همها أن تجعل عبدالحميد ابن البيك يدرك أنها ست الستات، وتسكن في ضواحي المدينة بل ضمن أفضل بيوتها.

لم يكن أبو أحمد قد زار بيت أخيه عبدالغفور في السويقة، لأنه لا يحب المدينة وضجيجها ولا يستطيع البقاء فيها إلا لتخليص بعض الأعمال كشراء البضاعة لدكانه الصغير بكميات كبيرة. لكنه لم يجد عبدالغفور في البيت ورأى عيوشا ابنة عمته، وبارك لها وسلم على رؤوف وفاطمة وأعطاها بعض الليرات، وكانت عطاياه قد أثارت حفيظة عيوشا، ولم تتطلع إلى ما بين يديها من كرم أبي أحمد، فهدية الزواج تأخرت منه سنوات، لكنها بمنزلة الكنز لأنها أسوارة ذهبية من العيار الثقيل مرصعة بحبات الألماس، وحاولت أن تبقيه على الغداء. لكنه أصرّ على الذهاب الليلة إلى القرية وشدد أنه لا يستطيع النوم في المدينة: «يا ابنة عمتي أتيت أبارك لكما وأرى أختي والبنات وأعود أدراجي إلى القرية».

لم يكن أبو أحمد ليرحل إلى القرية من دون رؤية عبدالغفور، فالتقاه عند زواية القلعة حيث يقف هناك لبيع القهوة مدركاً أنه لا يستطيع رؤيته إلا هكذا، فهو لا يستطيع ترك الحاجة سعاد ليلة واحدة وحدها إذ يجن جنونها إن فعل، وثانياً أراد الاطمئنان إلى أخيه الذي رحب به وحاول أن يبقيه الليلة عنده. لكن أبا أحمد رفض ذلك وتوجه إلى بيت الحاجة نورا ليتفقد أحوالها، ويخبرها أن أم أحمد بخير وأن أحمد بصحة جيدة وقد بدأ المشي أيضاً، بعد تأففها جراء تأخر حملها بعد إنجابها فدوى. لكن ابنته خدوج وفضيلة رفضتا البقاء عند الحاجة نورا، لأنهما متشوقتان إلى رؤية الصغير أحمد، فأخذهما أبو أحمد معه لتبقى فدوى وفتاة مع عمتهما.

لم يطل بقاء فدوى وفتاة مع عمتهما بعد أن اشتد شوقهما إلى رؤية الأخ الصغير، فأرسلت الحاجة نورا إلى حسن صبحة ليأتي لأخذهما إلى أبي أحمد. جن جنون كل منهما لأنهما ستكونان في القرية مساء. إلا أن الحاجة نورا قررت أن تنام الليلة مع طيبة أو فاطمة قرب رؤوف لتمنح نفسها سعادة أو رضى نفسياً، لأنها بعيدة عن عائلة أخيها عبدالغفور، فهو ينفر منذ الصغر من أي نصيحة توجهها إليه الشيخة سعاد أو الحاجة نورا قبل أن تتزوج عبدالله الذي يحبها ولا يستطيع فراقها لتألقها وجمالها وزهوها بنسبها، إلا عندما يلتحق بالخدمة العسكرية، وتسكن في حارة التنك حيث أقامت في بناية مطلة على ثكنة بهجت غانم، وحيث الهواء العليل والإطلالة الخضراء على بساتين الليمون والزيتون المحيطة بالقبة.

سادت الفوضى الشارع بعد أن تعارك المنجد خلدون مع سارق حاول نهب وسادة بينما كان يصلي، ليتطور العراك ويمتد ويصبح بين من يحاول الدفاع عنه ومن يراه مذنباً، ما دفع عيوشا إلى محاولة معرفة ماذا يحدث من شباك التخشيبة الذي فتحه أحمد لأخته عندما قررت البقاء فيها نهاراً والنوم ليلاً، والذي كان يطل على الحارة التي تضم عدة بيوت ومحال ملاصقة بعضها لبعض. وحين قررت العيش في التخشيبة أحست أنها تمتلك مملكة صغيرة في برج عالٍ، فوقفت خلفها فاطمة لتشاهد ما يحدث. لكن خلدون بعد أن استراح من

العراك لمح بطرف عينه النسوة خلف النافذة، ولفت بصره بياض فاطمة ووجهها المستدير، فانتبهت عيوشا لذلك، ولمعت في رأسها الفكرة التي انتظرتها لتنفيذ مبتغاها. نظرت إلى فاطمة، فتراجعت هذه الأخيرة إلى الوراء، كأنها شعرت بمخطط عيوشا لاإرادياً. لكنها بسرعة مدت يدها إلى الشباك وأغلقته بعد أن قالت لعيوشا: هلأ بتفوت ريحة السودا المشوية ما شايفة دخان الشوي شو قوي.

تفقدت عيوشا فرشتها الصوف وأدركت أنها منذ سنوات لم تمتد يد منجد إليها. سألت فاطمة منذ متى وهذه الفرشة هنا؟ فأجابتها فاطمة: منذ أن بدأ ينام عليها أبي اشترتها له الحاجة نورا، هي هدية عمتي. امتعضت عيوشا وبرمت شفتيها مستنكرة هدايا العمة، ما شاء الله شو حنونة وشو كتيرة هداياها، لا زارتني ولا باركت زواجي ما بيكفي تزوجت أخوها بكل عيوبه ومع أولاده. لم تحاول فاطمة الرد لأن أي كلمة منها ستكون المفتاح لعراك لن ينتهي إلا بكف من عبدالغفور على وجهها.

لم تكمل عيوشا كلامها حتى سمعت صوت شرارة عصا الحاجة نورا التي تشبه طقطقة أحجار طه، وهي تتعمد إصدار صوت عصاها وكأنها تقدح شرارة حضورها للتنبيه إلى وصولها، ولم تتنازل يوماً عن طقوسها هذه. فابتسمت فاطمة متأملة وجه عيوشا الذي تبدل تجهماً ودهشة ما جعلها تتلعثم وهي ترحب بالحاجة نورا. دخل الصبي وراء الحاجة نورا حاملاً الكثير من الأكياس. سألت فاطمة عمتها ستنامين

عندنا اليوم صح؟ نعم صح يا عمتي مضت سنوات يا عمتي اشتقنا لتبقي معنا. مشت عيوشا إلى الغرفة ولحق بها ياسين تاركة فاطمة مع الحاجة نورا ساعة قبل أن تنضم إليهما مجدداً. ثم استدركت أن هذا أغضب الحاجة نورا التي قالت: يبدو أني سأنام على التخشيبة مع فاطمة ورؤوف اليوم. وقبل أن تكمل عبارتها أطلقت عيوشا زفيراً وقالت: البيت صغير كما ترين، وأنا وعبدالغفور والأولاد في غرفة. وفاطمة ورؤوف على التخشيبة فقالت فاطمة بسرعة: أضعك في قلبي يا عمتي.

حملت الأغراض التي جلبتها عمتها وبدأت ترى ماذا أحضرت لهم، لأنها اشترت الكثير من الثياب لفاطمة وللأولاد ولرؤوف بالذات، ما أغضب عيوشا التي شعرت بالغيرة تاركة على شفتيها المزمومتين ابتسامة مقلوبة، وسخرية يصعب قراءتها على وجه يجيد استبطان النيات السيئة. اكتفت فاطمة بزيارة عمتها لتشعر أنها ما زالت محط عائلتها التي أنجبت عبدالغفور غير القادر على الانتماء إلى عائلة هو من أفرادها والمسؤول عن أولاده فيها. نامت ليلتها الحاجة نورا في التخشيبة، ولم تتكلم عن انزعاجها من هذا الوضع كي لا تتسبب لفاطمة بالحزن، لكنها قبّلت فاطمة وحضنتها قبل أن تغادر بيت عبدالغفور متوجهة إلى حارة التنك مجدداً في القبة.

أسرعت عيوشا في تنفيذ ما أضمرته لفاطمة في اليوم الذي غادرت

الحاجة نورا بيت عبدالغفور. توقف خلدون عن ندف الصوف فجأة حين وقفت عائشة بثوبها الأسود الطويل تمط رأسها كقطة خبيثة رافعة منديلها الأسود عن وجهها، متفقدة زوايا دكانه الصغير قبل أن تسأله عن أجر تنجيد فرشة، فهي لم تكمل إلا ساعات من اليوم الثاني مذ رآها خلف النافذة تتأمله بعينين جريئتين، لكنه أجابها أن كل فرشة ولها سعرها الخاص في التنجيد والقماش حسب طولها وعرضها وكمية صوفها. قالت له: المسا زوجي عبدالغفور القهوجي بكون بالبيت فيك تجي تشوفها لأنني أحتاج لتنجيدها في أرض الدار لا أريد حملها أو أن يحضرها لك أحد.

- كما تشائين، حين أغلق الدكان أزوركم، لأراها وأحسب لك تكلفتها.
- جيد إذاً بانتظارك.
- بأمرك ستي، حاضر.

أعجبت عيوشا بالرد. لكنها استنتجت أنه أعجب بها، وأن كلامه بأمرك ستي يوحي أنها من السيدات اللواتي تسمع عنهن من أمها حين كانت ترافقهن إلى حمام العبد، الذي تتمنى زيارته، والحمام فيه طقوس نسائية جميلة، فأمها كانت تستمتع بلحظاتها معهن، ودائماً ما تقول لعيوشا: أولئك النسوة كل واحدة منهن ست الستات. ضحكت في سرها وأكملت طريقها إلى منزل والدتها لتتفقدها، لكنها لم تجدها في المنزل، فربطت على قبضة الباب الخشبي شريطاً كان مرمياً على الأرض وعادت إلى البيت.

حاول أحمد إخراج النقود عندما وجد عيوشا غائبة، وعندما وصلت خرج مسرعاً الأمر الذي أغضبها، فقالت لفاطمة: ماذا يفعل هالمنحوس هنا؟ فقالت فاطمة: أتى ليأخذ الراديو كي يصلحه تركته هنا جارتنا أمس، فاشتعلت عيوشا غضباً، وقالت: شو البيت مفتوح للرايحين والجايين بلا أصحاب، ممنوع مرة تانية يترك أي أحد قطعة خربانة لأحمد.

أفرط محمود في صنع العصي، فمجموع ما أنجزه أكثر من عشرين، وكان كلما استعمل السكين في تنظيف خشبة العصا، ازداد إتقاناً لينقش على الخشب الرموز والرسوم لتصبح جميلة فعلاً، ومن صنع صبي حالم مكانه تحت الزنزلختة التي باتت كأمه تحتضنه وترعاه وتحميه من الشمس ويستمتع بجمالها كلما هرب إليها من عيوشا، التي تحاول استفزازه أو من أبيه، الذي يخافه بل يرتعب منه لأنه لا يناديه باسمه، بل ابن الهبلة يبيع العصا أو يهديها لا فرق، لكن زيارة فرن أبي عشير لا بد منها لأنها تشكل له حكايا يستمتع بها. وبمرور الوقت صار يعمل معه بعد أن أتقن العجن والتخمير وصنع الكعك، فيرسله أبو عشير أيضاً إلى البيوت لإرسال الخبز إلى زبائنه، ومن بعدها أصبح محمود فراناً يصنع الخبز مع العمال وينام في الفرن، لأنه لا يريد سماع ضحكات عيوشا ليلاً وهي تتأوه لأبيه، ولا يعرف لماذا كل هذه التأوهات التي تجعله في نشوة لا يدرك سرها. إلا أنه بات ينتظرها كل ليلة حتى أدمنها فكرهها لأنها تشكل له نشوة خاصة من امرأة يكرهها حتى الموت.

الشرارة الأولى

حاولت الحاجة نورا أن تعيد محمود إلى البيت، لكنه صدّ الجميع وقال لهم سأصبح رجلاً وأنا أعمل وأنام مكان عملي. لكنه لم يترك العصا وهو في طور الرجولة. إلا أنه كان يتفنن في رسومه عليها ونحتها كلما لاحت له فكرة. إلا أن ذلك الفن له مكانه وطقوسه تحت الزنزلخت حتى أصبح الجميع يعرفونه متى يكون هناك ومتى يكون في الفرن.

أما طه فلم يترك عادته في طقطقة الأحجار حتى بعد أن دخل إلى الجيش، وغالباً ما ينام في الثكنه ولا يأتي إلى منزل أبيه إلا عندما يرغب في رؤية فاطمة التي نذرت حياتها لرؤوف الذي يتشاجر دائماً مع أخويه مصطفى وياسين، لتنتهي المعركة بضرب رؤوف بعصا عيوشا، فيصعد إلى التخشيبة ليبكي ويفرك رأسه في حضن فاطمة ويغفو على صوتها الحنون.

تساءلت فاطمة عن سر قسوة عيوشا هذه، وهي ابنة عمة أبيها قريبتهم، بخاصّة وأنّ أعمارهما متقاربة، وهي لم تدرك المكيدة التي تحضرها لها عيوشا لتتخلص منها وتعيش مع عبدالغفور دون أولاد

زوجته السابقة أو ضرتها، خيّل إليها أنها قادرة على تنفيذ ما يجعله يكره فاطمة ويطردها إلى بيت الحاجة نورا من دون عودة. حل المساء وانتظرت عيوشا المنجد بفارغ الصبر بعد أن قفزت قفزة ظنت فاطمة أن شيئاً ما وقع، لكنها تدحرجت نحو الباب وياسين بين يديها، لأنها لم تتركه لفاطمة كما تركت مصطفى الذي يشبه إخوته. فتحت الباب وأدخلته إلى البيت وفاطمة على التخشيبة ترى ما يحدث، واتفقت معه على أجره، لكنها امتعضت ورفضت ما يريد محتجّة أن السعر غالٍ جداً ولا يناسبها، فانسحب خارجاً لكنه التقى عبدالغفور الذي رآه خارجاً من البيت.

دخل عبدالغفور مستفسراً عن رؤية خلدون المنجد فقالت له عيوشا يبدو أنه أتى لرؤية فاطمة بالسر، وما أدراني أنا لتسألني لم أخرج من غرفتي، لكن سمعت الباب يفتح ويغلق فظننت أن جارة من الجيران تحتاج إلى شيء. صعد عبدالغفور إلى التخشيبة مسرعاً والغضب يملؤه حتى سال ريق فمه وملأ ذقنه، وصرخ فاطمة، فارتعدت هذه الأخيرة ورمت إبرتها والقميص والأزرار التي طارت، فصفعها وجرها من شعرها ورماها عن التخشيبة إلى الأرض وهي تحاول الوقوف لكنها لم تستطع، فأسندت يدها إلى الكرسي الصغير قرب الباب لتقف في حين كان عبدالغفور في هذه الأثناء قد نزل عن التخشيبة. جرّها من شعرها، فتح الباب ورماها عن الدرجات الحجرية المئة، لتتدحرج حتى وصلت إلى الأسفل ويدها مفتولة من الكتف خلف ظهرها، وغابت عن الوعي

دون أي صرخة من عيوشا التي كانت فرحة بما يحدث. لكن من حسن الحظ أن أحمد دخل لزيارة أخته ليتفقدها بعد سفره لأسابيع إلى بيروت ليشتري قطع الغيار، فرآها سابحة في دمائها وعبدالغفور يلهث كالذئب الجائع الذي لم يرتو من ضحيته. صرخ أحمد بعبدالغفور يا ظالم ماذا فعلت بها؟ قال له عبدالغفور:

- إحمل هذه الكلبة من هنا وادفنها ولا تريني وجهها بعد اليوم.

لم يحرك عبدالغفور ساكناً وأحمد يشكو أمره إلى الله بغضب شديد. حملها أحمد على ظهره وهو يقول: ظالم متجبر أنت لست بالأب لا يمكن ذلك أبداً. أخذ يبكي بعد خروجه من البيت، واتجه بها نحو مستشفى شاهين الذي لا يبعد عن السوق كثيراً قبل الوصول إلى الزاهرية. أدخلها الطوارىء، فجن الطبيب بعد أن صرخ بفريق التمريض لتهيئة غرفة العمليات. وضع أحمد رأسه بين كفيه وجلس يبكي أخته فاطمة التي ظن أنها ماتت والدماء تسيل من جبينها ويدها وظهرها، وانتظر ساعات أمام غرفة العمليات قبل أن يخرج الطبيب ويقول له: إنها تحتاج إلى عملية سريعة، فالكتف مخلوعة والجبين يحتاج إلى تقطيب وكسر في الفخذ الأيسر.

بكى أحمد لحال أخته فوافق هو على إجراء العملية، لكن إدارة المستشفى طلبت منه مبلغاً كبيراً لا يمكن جمعه بساعتين، مضى على الأوراق وتكفل بدفع المبلغ الذي ذهب إلى جمعه من إخوته أولاً ومن ثم سيتصرف مع عبدالغفور هذا الذي كان يشتمه من شدة غضبه.

اتجه مسرعاً نحو محمود إلى الفرن، فوجد معه القليل، بعد أن غضب وأسرف في شتائمه لعيوشا وأبيه. المبلغ لا يكفي يا محمود، ما في غير الحاجة نورا، فاتجه إلى عمته في حارة التنك وأخبرها بما حدث، فجن جنونها وارتدت ثيابها على الفور: «متمتمة الله يعين من تموت أمه». أعطته المال قبل خروجها، لكنه رفض وطلب من عمته أن تدفع فقط ما ينقص من المال الذي معه. لكنها صرخت به: «ولد ضع المال في جيبك ولا تتفوه بكلمة». اتجهت الحاجة نورا مع أحمد إلى مستشفى شاهين ودخلت مباشرة وصوت عصاها الغاضب كطبل إفريقي، لتنتظر أمام غرفة العمليات بعد أن سألت أحمد عن الأسباب التي دفعت عبدالغفور لفعل هذا. لكن أحمد أيضاً لا يعرف لماذا حدث كل هذا، حكى لها ما فعله به حين رآه وقال له: احمل هذه الكلبة من هنا وادفنها ولا تريني وجهها بعد اليوم، وكيف رأى عبدالغفور وهو يجلس على الدرجة الأولى بدم بارد، وفاطمة تحت مضرجة بدمائها، فحملها وأحضرها إلى هنا.

يا إلهي يصعب تصديق ما فعله عبدالغفور، لا يمكن ذلك أبداً مهما كانت الأسباب، كاد يقتل ابنته يا ربي ما هذا؟. بكى أحمد بشدة بعد أن احتضنته الحاجة نورا محاولة التخفيف عنه، لكنه صمت دون أن يجف دمعه لحظة، ليخرج الطبيب من غرفة العمليات متجهاً نحو أحمد وقال له الحمد لله على سلامتها، أسنانها تكسرت وجبينها حوالى عشرين قطبة وكتفها المخلوعة نجحت عمليتها، وفخذها سيشفى دون إعاقة. إلا أن جبينها سيحتاج إلى تجميل وهذا مكلف أو سيتأخر ليشفى تماماً دون أن يترك أثراً كبيراً.

دخل أحمد مسرعاً بعد أن أنهى الطبيب كلامه إلى غرفة أخته، والممرضات يضعنها على السرير بعناية وهي تستفيق من البنج بتمتمات لم يفهمها أحمد. إلا أنه فهم اسم رؤوف. استفاقت فاطمة بعد ساعات وأصبحت بوعي تام والحاجة نورا تجلس أمامها وأحمد يمسك بيدها ويقبلها كلما أحس بدمعها يتدحرج. سألتها الحاجة نورا ما الذي حدث؟ لا أدري يا حجة نورا، دخل خلدون المنجّد إلى الدار وحكى مع عيوشا، بعدها وصل أبي ودخل غاضباً يضربني وهو يسالني

ماذا كان يفعل خلدون المنجّد هنا، والله يا عمتي لا أعرف ماذا كان يفعل؟

ترك أحمد بسرعة يد نورا وتوجه إلى البيت غاضباً ففتحت له عيوشا وهي تتصنع الحزن، فسألها أين عبدالغفور يا شيطانة؟ وبصوت غاضب هرب منه مصطفى وياسين واختفيا، لترتجف عيوشا وتقول: ذهب إلى عمله، أمسكها من كتفها وهزها ما الذي كان يفعله هنا خلدون المنجّد؟ لا أعرف اذهب واسأله أو اسأل أختك، تركها وهو يقول لها: ملعونة أنت يلعنك يلعنك الله يلعنك.

لم يسكت رؤوف تلك الليلة إلا رعباً من صفعة أبيه له وعصا عيوشا التي لا تهدأ، ونام وهو يفكر في الهروب من البيت إلى بيت خالته الكوشارية، هو يعرفه قرب البحيرة التي يصطاد إبراهيم منها السمك الذي تحضره الكوشارية عندما تزورهم، ومتيقن أنه لن يضيع. انتظر حتى نام الجميع، وانسحب من فراشه حافياً. نسي انتعال حذائه لأنه غالباً لا يستعمله، ولا يعرف أين تضعه فاطمة. شكر الله لأن الباب غير مغلق والفتحة تسمح له بالعبور دون أن يشعر به أحد. نزل الدرجات وهو يرتجف من البرد حافياً، فتح الباب الكبير، وخرج راكضاً في عتمة لا يدري إلى أين! لكنه مشى على بولفار فؤاد شهاب والأرض تأكل من قدمية الحافيتين حتى أحس بالوجع الشديد، وخيوط الفجر تتسرب إلى السماء، غمره النعاس ونام تحت قبو قديم عند مدخل طرابلس

دون أن يكترث لبرودة المكان التي لفت جسده المتعرق من المشي، نام ولم يشعر إلا على يد رجل عجوز يهزه.

- من أين أنت يا ولد؟

لم يرد رؤوف بل أصابه الذعر، فتركه وهرب راكضاً مع السيارات القليلة جداً التي تسير على الطريق. ارتفعت شمس الظهيرة خفيفة. لكنه لم يتوقف بل أكمل السير حتى تورمت أصابعه، فاقترب من البيوت قليلاً لعل يجد ما يرتديه، كان يمشي بين البيوت وعيناه على أحذية المارة متمنياً الحذاء، ليحمي قدميه اللتين بدأتا تؤلمانه، ناداه صاحب الدكان الذي مر من أمامه.

- ما اسمك يا ولد؟

لم يتكلم، أعطاه حذاء وسأله مرة أخرى. لكن رؤوف لم يفتح شفتيه وترك الكلام لعينيه اللتين تبثان الحزن.

- أين أهلك يا ولد؟ من أي بلد أنت، لم أرك في الجوار؟

نظر رؤوف بعينيه يقرأ المكان، لكنه لم يعرف أين هو. إلا أنه قال: إنني ذاهب إلى بيت خالتي أم إبراهيم الكوشارية. فضحك الرجل وقال له: هي خالتك إذاً الكوشارية. أمسك بيده وقال له: سآخذك إليها. دب الفرح في نفس رؤوف وكاد قلبه يتوقف وانتظر عودة الرجل بعد أن دخل إلى غرفة أخرى، ومن ثم عاد يحمل مظلته ومشيا معاً، إلى أن وصلا إلى عربة يجرها حمار تشبه تلك التي سمع عنها من حكايا أخته فاطمة. ونام في العربة من شدة التعب إلى أن وصل إلى حضن

الكوشارية، ليخبرها بما حدث لفاطمة، فجن جنونها وأخبرت بذلك أيضاً إبراهيم الذي أراد أن يتوجه إلى طرابلس ليطمئن إلى فاطمة ويخبرها، أن رؤوف عندهم كي لا تبحث عنه.

كان قد توجه إلى دكان خلدون في الصباح ليسأله ما الذي يريده، ولماذا زارهم في الليل، رد خلدون قائلاً: إن امرأة من البيت طلبت منه تنجيد فرشة فقال له أحمد أنت تكذب. فقال خلدون: ولماذا أكذب؟ هي لم يعجبها السعر، وخرجت، هذا كل ما في الأمر وأظنها زوجة القهوجي عبدالغفور. تجمد أحمد مكانه وأدرك أن في الأمر مكيدة من خالته فقال خلدون: ولماذا تسأل؟ رد أحمد لأن أبي رمى أختي، وهي في المستشفى بسببك، لأن زوجة أبي قالت له إنك أتيت من أجلها. صرخ خلدون: يا لطيف يا لطيف ما معقول ما معقول إن كيدهن عظيم!

الفصل الثاني

لم أنم تلك الليلة بعد أن التقيت خالتي الكوشارية حتى أنا نسيت اسمها، ولا أعرف إلا أنها أم إبراهيم الكوشارية يا هدى لأنني مذ ولدت في هذا الحياة، وأنا شقي لا حظّ لي. لكن خالتي الكوشارية كانت حنونة، ولا أذكر أنها ضربتني في يوم من الأيام، وإن تأخرت خارج البيت كانت ترسل إبراهيم ليحضرني، وكنت أناديه أبا زهرة لمحبته الشديدة لزهرة الوزال الحزينة، فيجدني عند قبر أمي نائماً. يحملني وأشعر بحرارة يديه وقبلات خالتي الكوشارية ذات الرائحة البصلية التي أميزها بها تملأ أنفي. أهدت لي بقرة صغيرة اسمها بريصة فأحببتها، وكانت لا تشبع من الأرض ولا من التبن الذي أقدمه لها في فصل الشتاء. أحياناً كنت أغفو قربها على زند من حجر بعد أن أحلبها في المساء وتجهز لي خالتي صحن القشطة لترويقتي، تحسباً لأي ولادة فجائية تمنعها من إعداد الترويقة أو إبلاغنا أين هي. فكنت أنام وروائح القشطة المستخرجة من حليب بريصة في أنفي.

في الشتاء عندما تتساقط الثلوج كنا نلعب أنا وخدوج أمام بيت عمي أبي أحمد وهو يراقبنا مستمتعاً، وكنت أحزن جداً عند رحيلها إلى

بيت العمة نورا، وإذا ما بكت خدوج أو فضيلة، انهالت عليّ الشيخة سعاد بالبلوط الذي تحمله في يديها لترشق به الصبية إن حاولوا الاقتراب من بقعة الثلج الصغيرة، التي تحميها لتأكل «الباسما» وهي عبارة عن الثلج والقليل من حامض الرمان والسكر تمزجه الشيخة وتقدمه لضيفاتها اللواتي تفور منهن رائحة «السيكون» الذي يجلبنه من البراري بعد هدوء العاصفة، لأن السيكون هو من الأغصان اليابسة المرمية بين جوانب الشجر بعد العاصفة، أو تلك اليابسة منها، التي ما زالت متمسكة بالشجرة؛ حتى الأشجار ترفض أحياناً رمي أغصانها اليابسة على الأرض.

كانت قرية عيدمون قريبة من القبيات وهي بين الجبال كجبين ناصع الجمال حيث كنت ألعب بين حقولها وبساتينها دون ملل. كان ينقصني أختي فاطمة لتكون معي. لم أقبل العودة إلى بيت عبدالغفور المحنك مع النساء، والقاسي مع أولاده بعد أن رجوت خالتي البقاء عندها، ولم أستطع ترك بريصة بقرتي التي عاهدتها على البقاء معها إلى الأبد. فالرعب يدب بي بعد الذي حدث لفاطمة أمي وأختي وحبيبتي التي ستتزوج وترحل، وسأبقى وحدي بين يدي عيوشا، والفكرة تلك كانت ترعبني عندما أتخيلها. حاولت فاطمة أن أبقى معها، لكني تعلقت بخالتي وهددتها أني ساهرب إلى أحراج نبع جعلوك.

رفضت تسليمي إليهم بعد أن تحدثت الكوشارية إلى الشيخة سعاد مطولاً وأقنعتها بأن أبقى عندها شرط أن أتعلم مهنة صنع الأحذية

من عمي أبي أحمد فوافقت الكوشارية. ثم تزوجت فاطمة من خلدون المنجد الذي أشفق عليها فطلب يدها من أخي أحمد وعبدالغفور وافق، وكأنها ليست ابنته بل الوصي عليها أو ربما خادمة عنده. حملت هي أمتعتها، ورحلت إليه بعد أن قال لها أحمد إن خلدون يريد الزواج بها على سنة الله ورسوله، ولكنه يربّي ابنتين صغيرتين تركتهما أمهما بعد أن طلبت الطلاق منه لفقره، فوافقت مسرورة ولم تصدق ذلك. لأنها كلما وقفت على الدرج تذكرت ضربات عبدالغفور، وكيف تدحرجت وتكسرت وانشق جبينها، حتى المشعوذة عيوشا كانت سعيدة بما فعلت بعد أن تشوه جبين فاطمة وتكسرت أسنانها، وانتقل أبي مع عيوشا إلى السكن في بيت جديد كبير في الزاهرية قرب بساتين الليمون وعلى الطراز الحديث دون أن يسأل عني أو حتى يطلب من خالتي أن تعيدني إليه. خاطرت في البقاء مع خالتي الكوشارية التي كانت تدللني وكأنها أمي، فما زلت أذكر رائحتها حين تعود ليلاً بعد ولادة ما؛ فهي الداية الوحيدة في المنطقة التي لا تأخذ الأجر إن كان رب العائلة فقيراً، لكنني بذلك كنت قريباً من خدوج، أزورها صباحاً قبل أخذ بريصة إلى البراري، وتنتظرني عند المساء بعروس الجبنة والأريش أو «الصاميجة» هكذا كان يسميها أولاد خالتي الكوشارية. كانت خدوج أجمل البنات في القرية وعمي أبو أحمد همه البنات. كان يقول دائماً: «همّ البنات للمات». هو رجل طيب، لكن لا أعرف لماذا لا تحبني جدتي الشيخة سعاد، نظراتها تخيفني كأني صبي منبوذ،

لم تنادني باسمي با كانت دائماً تقول لي: يا ابن عبدالغفور ابتعد عن خدوج يا ولد.

كنت أشعر أن الشيخة سعاد لا تحب أبي، إذ كلما اقتربت منها تضربني بالعصا فكرهتها جداً، وكانت تقول لي: «صبي شقي لا تمسك يد خدوج». في البدء رحب عمي بي ليعلمني صنع الأحذية، التي استمتعت بصنعها معه خصوصاً درز الجلد قبل شده على القوالب الخشبية، لكنه تذمر بعد ذلك عندما أصبحت خدوج تتعلق بي وتنتظرني كل يوم لنفطر معاً عندما تكون في القرية، لأنها غالباً مع البنات في بيت عمتي نورا في طرابلس. لا أدري لماذا تشتعل القلوب كلما زادت قساوة البشر علينا.

لم تقتنع الحاجة نورا قط ببقائي في بيت الكوشارية لأنها تنتقل من بيت إلى بيت، لكنني في بيتها تعلمت النوم على زند الحجر بعد أن ألفه بقطعة من قماش بالية. هذا الزند الذي أضع عليه رأسي وأشعر بقساوة الأيام التي عشتها.. وغالباً ما تبقى الكوشارية أياماً في بيوت النساء اللواتي يلدن على يديها، وفي ظروف ما، لم تتمكن من الاهتمام بي رغم أن بيتها قرب بيت عمي أبي أحمد الذي خصّني ببعض الاهتمام بعد أن لاحظ براعتي في صنع الأحذية. لفتني المسن الذي كان يستخدمه عمي لشحذ سكين التفصيل، كان يشبه زند الحجر الذي أنام عليه، وكنت أتساءل: هل يشحذ زند الحجر أحلامي فتتحول إلى كوابيس ترعبني ليلاً؟

في صباح شتوي استفاق عمي على صراخ أم أحمد، وهي تمسح عن فم أحمد مادة سوداء ما زلت أذكرها ولا أعرف ما هي. لكنه مات ولم يرزقه الله الصبي بعدها. لكن جدتي كانت حزينة جداً حتى أنها ماتت بعد أسبوع واحد من موت أحمد، فملأ الحزن بيت عمي أبي أحمد، ولم أعد أرى خدوج. كانت أم أحمد تبكي بحرقة دون أن يلاحظ عمي أبو أحمد دموعها. وكانت تأمل إنجاب الصبي مرة أخرى. إلا أن العمر لم يسمح لها بذلك على ما يبدو. وبقي الخوف من أن يرث أملاك أبي أحمد أولاد عبدالغفور لأنه لم ينجب الصبي.

أخذت عمتي البنات معها نهائياً إلى طرابلس، وبقيت عند خالتي الكوشارية أرعى بريصة البقرة الحلوب التي شبعت من حليبها وقشطتها وكرمها وشغبها. لم أحاول ضربها ولا مرة كما كان يفعل إبراهيم بأبقار خالتي الباقية، وكنت أزور عمي في دكان الأحذية القديم، وأتعلم منه درز الجلد لصنع الأحذية، وعندما خف نظره أصبحت مقرباً منه أكثر، لكن بالنسبة إليه كنت كصبي المقهى في دكان حافل بالزوار من القرى المجاورة الذين يقصدون عمي للشراء من أحذيته، وكنت ألف له ولضيوفه الدخان (التتن) وأسمع أحاديث الرجال الضعيف منهم والقوي، إلا أنه كان يغضب عندما أتركه لأرعى بريصة عندما يشتد اشتياقي إليها، لأني كنت أساعده على درز الأحذية التي يصنعها للزبائن، ومن ثم أصبحت أصمم له الأحذية التي كان يشتريها البكوات فقط، والتي كنت أراها في الأفلام السينمائية عندما أهرب إلى طرابلس

يومين فقط؛ فالكوشارية كانت تعطيني ما يكفي من القروش لزيارة خدوج والعودة إليها في اليوم الثاني.

أصبحت أرى خدوج من بعيد لأن عمتي أبعدتني عنها، فكنت أزور أختي فاطمة وأنام ليلة عندها وأطمئن أنها بخير مع خلدون، فهو طيب القلب رغم فقره، وأعود إلى بيت خالتي الكوشارية وأنام قرب بريصة على فرشتي من التبن في بيت الحجر. لكن عمي أبا أحمد فيما بعد أصرّ أن أرحل مع أبي خالد الحموي إلى سوريا لأدرز له، وأبقى عنده حتى أتعلم المهنة كاملة ويشتد عودي في هذه المهنة، فقد أعجب بالدرزة التي ابتكرتها في الأحذية المكلفة آنذاك.

وصلت إلى سوريا بمغامرة صبي لا يحب الخضوع لأحد، وتحديداً إلى حماه وأكد أبو خالد لي أني سأكون صاحب مهنة لا تموت لأني أحفظ الموديل الذي أراه وأستطيع تنفيذه ودرزه بإتقان، وهذا كان يفرحني لأني أردت أن أفتح دكاناً لبيع الأحذية بغض النظر عن التقيد بالحموي الدقيق بأوامره مع من ينفذها، وحده الحلم بشراء بيت صغير لأتزوج خدوج صاحبة الخدود الوردية، كان كفيلاً لأصبر. تركت بريصة لإبراهيم مرغماً، ولملمت أغراضي من بيت خالتي التي دمعت عيناها حزناً لأني سأغادر بيتها. لكنها قالت لي إنني أصبحت رجلاً، وهذه مهنة تجلب الثروة لصاحبها، فإن أتقنتها ستصبح رجل وجاهة في المجتمع.

كان صاحبنا أبو خالد الحموي متزوجاً امرأتين، وكان عليَّ

كل يوم قبل أن أشق طريقي إلى الدكان في السوق أن أشتري لهما الأغراض وأبقى دائماً في خدمتهما ليرضى الخواجة أبو خالد رغم أن سني يومذاك لم تتجاوز الخامسة عشرة. كنت أجول قرب النواعير وأبكي لخرير الماء، ولصوت أمي الذي لم أسمعه وما من شيء في هذا العالم يشبه صوتها الذي لم أسمعه، والذي كان يدندن أغنية: سمعت عنين الناعورة التي تغنيها فاطمة كثيراً وتقول لي: هذه أغنية أمي المفضلة التي ترددها باستمرار حتى وهي تستحم، وكأني أبحث عن الحزن لأجده من حولي وفي كل مكان أتركه وأرحل عنه حاملاً بعض الذكريات الموجعة منه. فحوى الحياة أنها تشبه كوز الصنوبر كلما انتشلنا منه حبة بصعوبة بقيت أخرى عالقة في جوفه لا تريد الخروج إلا بشق النفس.

اشتعلت ثورة شمعون ومعرفتي بأسبابها سطحية مع أني شاركت فيها ورغم الخوف الذي انتابني من فقدان من أحب؛ فرحى الحروب تطحن بقوة كل ما نضعه فيها إن كان من يمسكها قوياً بما يكفي. أحياناً كنت أفكر في الهجرة إلى مكان لا يعرفني فيه أحد، لكن خدوج كانت تدخل إلى حلمي بالهجرة في اللحظة الأخيرة فتمنعني عن القيام بذلك. حرب شمعون لم أرها كما أراها الآن بعد هذه السنين التي لم أشعر بها لولا أحزاني، وبأحداثها من خلال ما سمعته من الزبائن الذين كانوا يأتون إلى حماة من طرابلس لشراء البضاعة الحموية الفاخرة وللاستمتاع بالنواعير، دب الرعب في قلبي من إغلاق الحدود رغم

أنها مفتوحة شمالاً لمن يجيد الهروب بفن الصبية الصغار، فأبقى في سوريا إلى الأبد، وحين أردت العودة كان عليَّ الهروب براً من معبر وادي خالد إلى عكار إلى بيت عمي أبي أحمد. لكن يومئذ، وبعد بقائي سنتين مع الحموي وحنكته في صناعة الأحذية والتجارة بها، كنت أملك من المال ما يكفي لأشتري دكاناً صغيراً في سوق طرابلس وأبدأ العمل وحدي؛ فأبو خالد الحموي كان يعطيني أسبوعياً أجرتي من دون تأخير وبسخاء طائي جعلني أتمسك بالبقاء عنده أكثر، فأدخر المال كله. لأني كنت أعمل في دكانه وأنام فيه، وزوجاته يرسلن إليّ الطعام معه عند عودته في المساء. حتى أنني كنت أجالسه مع أصحابه ومع التجار في مقاهي حماة قرب النواعير.

حلم الوحدة الاقتصادية

اعترض أبو خالد الحموي فيما بعد، على عودتي إلى طرابلس ساخراً من هروبي معتبراً أن الوحدة الاقتصادية بينه وبين عمي تشبه حلم الوحدة الاقتصادية بين لبنان وسوريا. حدثني بهذا حين التقيته عند عمي أبي أحمد فيما بعد محاولاً إقناعي بالعودة إلى سوريا لأنها برأيه كانت كفيلة بأن أبقى معه وتحت جناحيه، ليرعاني ويشتد عودي في هذه المصلحة الإسكافية أو صناعة الأحذية. إذ التقيته مرة أخرى بعد هدوء العاصفة الشمعونية، لأن عملي معه منحه الكثير من الزبائن، وهو رجل حاذق ومتقن لصنع الأحذية وقد تعلمت منه الشيء الكثير في الحياة والعمل. كان يقول لي عندما أنقل إليه شكوى زوجاته من تأخر الأغراض أو نوعياتها: «إن المرأة والطفل الصغير يظنان أن الرجل على كل شيء قدير». يا بني اسمع ما تقوله المرأة وابتسم حتى وإن شتمتك.

حماة مدينة دافئة تشبه طرابلس مع فروق بسيطة، أهلها يتمسكون جداً بالعادات والتقاليد والعائلة عندهم مقدسة. لم أشعر ربما بهذا في طرابلس! لأني ولدت يتيماً لأب لم يكن رب أسرة جيداً ينتمي إلى عائلة ذات جذور قوية لا تقتلعها الريح. هربت من حماة دون علم

أحد بعد خبر ثورة شمعون والخوف من أن ينقطع طريق عودتي إلى طرابلس. وبدون مقدمات، منذ وصلت إلى بيت عمي أبي أحمد أعطيته ما ادخرته وتحدثنا عن شرائي الدكان لأبدأ. لكنه قال لي بأن الوضع غير مستقر والأمور السياسية في غليان يؤثر في وضع البلد.

بدأ الغليان يزداد بعد وصولي إلى لبنان، وأصبحت الكوشارية أكثر خوفاً عليّ من أن انضم إلى المتظاهرين وأرحل للقتال في شوارع طرابلس التي ازدحمت بالمسلحين. لكنني لم أفعل، وبقيت في طرابلس لأكون قريباً من خدوج بانتظار عمي أبي أحمد لأشتري دكاناً، ولم أخبر أبي بالمال الذي معي لأني خبأت قسماً منه مع عمي أبي أحمد والقسم الآخر مع فاطمة أختي التي أنشأت عائلة جميلة مع بنات زوجها اللواتي تعلقن بها كأنها أمهن.

لكننا انشغلنا فيما بعد بالتظاهرات أنا وابن خالتي إبراهيم الناشط جداً سياسياً من خلال الأحاديث التي يسمعها من محيي الدين مرعب، والبيك ياسين الرشيد في القرية القريبة من قريتنا المتمسكة ببكواتها، وكان متحمساً جداً لهذا الوضع السياسي المشحون، خصوصاً بعد اغتيال الصحافي الذي أدى إلى توتر كبير آنذاك؛ فمنع التجوال كان يعيدني إلى بيت خالتي حيث أذهب مع إبراهيم إلى اجتماعات سرية مع الشباب في طرابلس وعكار. كنت أشعر بالدم يفور في عروقي وبلذة الدفاع عما نؤمن به من قضايا شعبية ومطالب محقة. وإنني أشعر الآن أن كل الأطراف التي تصارعت محقة، لأننا عوالم متفرقة في بوتقة

بشرية واحدة. تتصارع لأتفه الأسباب دون أن تهتم بتجميع الخيوط في يد الإنسانية.

أصبحنا بين موالاة ومعارضة واضحة وصريحة وقيامة الشارع الشعبي أثبتت ذلك يومذاك، والحقيقة أننا في عمر الشباب نندفع دون الإحساس بقيمة القضايا المحقة فعلاً. لأننا نصبح كزجاجة ينفخها صانعها لتكبر، فإما تصبح جميلة تلفت الأنظار، وإما تنكسر بين يديه. اشتد الخطر على إبراهيم أبو زهرة ابن خالتي الذي أصبح بمنزلة أخي الكبير عندما تزعم مجموعة من الشباب أرادت المشاركة في تظاهرات بيروت والشوف، وما بين موافق ومعارض كان اشتداد المفاهيم يؤدي إلى خلافات لها منظورها العام. إذ ما بين المحيط الإسلامي العربي والمنظور المسيحي الغربي تلاق وانفتاح على الفكر الجديد الذي ربما لم أفهمه يومئذ! لأن الحروب لا نتدرب عليها نحن الشعب الفقير حين نصبح كالجنود بدون معسكرات نأوي إليها، لأننا نرتجل القوة من انفعالات تجعلنا نشعر بعدها أننا كذبابة لا حول لها ولا قوة.

كأن الرؤية غطتها غشاوة سحابة، لكنني كنت سعيداً جداً بالتظاهرات، لشعوري بقوة رجولتي عندما أكون بين المتظاهرين إلى جانب إبراهيم. كنت أفكر لماذا لم نتظاهر على عبدالغفور والشيخة سعاد التي تغضب على عبدالغفور وترضى على أبي أحمد مع أنّ الاثنين ولداها فيما كانت الحاجة نورا وحدها المستفيدة من ذلك.

كان إبراهيم ابن خالتي يهتم جداً بالسياسة بعد أن امتلك العديد

من الأبقار وتوسع في صنع القشطة واللبن والجبنة، لكنه عزف عن الزواج وهو ضخم الجثة، كبير الوجه وغليظ الكفين، لكنه ذو قلب رقيق. كنت أدرك مدى حبه لفاطمة التي يخاف حتى البوح باسمها. لكنه كتم ذلك عني ولم يخبرني عن نفسه إلا ما هو متعلق بالسياسة التي شربها من ياسين الرشيد صاحب البيت الحجري الكبير والكثير الغرف في مرج القرية. لقد كان من أشد المعجبين بالعهد الشمعوني ويقول لي بأن لبنان يشبه أمي الكوشارية الباردة الأعصاب والتي تريد لكل النساء أن يلدن على يديها. شهدت ولادات كثيرة منها ما بقي على قيد الحياة، ومنها ما تصارع مع الموت، ومنها ما اشتد عوده وينتظر البلوغ ليعتمد على نفسه. لم أكن أفهم عمق كلامه إلا بعد حرب الـ٧٥ حيث كل شيء مخيف في البداية. إنما عندما ندخل في دائرته أو معمعته يتلاشى الخوف، وهذا ما حدث لإبراهيم بعد نشوب الأزمة الكبرى عام ١٩٥٨ حيث اختفى إبراهيم وحاولنا البحث عنه دون جدوى، وبكته الكوشارية على طريقتها. فهي لم تؤمن أنه مات وظلت تنتظر عودته يوماً ما بإيمان كبير. محافظة على بقراته التي تركتها بين يدي عامل أتى من الكواشرة خصوصاً للاعتناء بها. كانت تقول: لا يمكن لإبراهيم إلا أن يموت في لبنان ويدفن في عكار أرض أجداده الأوفياء.

شد الحزن على نفسي بعد اختفاء إبراهيم، وتكدست همومي بعد أن تركت أبا خالد الحموي الذي اعتادت جوارحي البقاء معه، فكان يحدثني كأب ويمنح لسانه الحكيم سامعه دائماً حكمة الحياة. كنت

أزور خالتي عيوشا وعند زيارتي لها فجأة كانت تخاف أن أبقى في بيتها، فتحاول إبقائي على الكنبة قرب الباب وتقول لي: البيت ضيق كما ترى والأولاد صغار لن تستطيع البقاء بين ضجيجهم. لم أكن أهتم بكلامها لأني كنت أزورها لأرى مصطفى وياسين وخالد وسناء إخوتي منها هي الغاضبة باستمرار، وبخاصة سناء التي كانت تعدو عند رؤيتي لتضمني، فتبعدها عني، وكأني بعبع خرج من حكايات أمنا الغولة، أو كأني غريب عنها مخيف إلى درجة تجعلها تحدق إلي وشرارة عينيها تلهب غضبي.

لكن يا أبي كيف عدت إلى طرابلس نهائياً وأنت تحاول تحقيق حلمك بالزواج من خدوج أيضاً، ولماذا خدوج يا أبي، ألم تعجب بأخرى وأنت قلت إنك ذهبت إلى حماة وبقيت هناك؟.

نعم صحيح لأن خدوج منذ الصغر كانت تعطف عليّ وتحبني وتقترب مني وتلعب بخدّي، وتخفي الطعام عن جدتي لتعطيني إياه خلسة، وهذا ما لم يحدث مع أي بنت أخرى كانت تغدق عليّ من الحنان، وأنا أيضاً عندما أراها أتذكر أختي فاطمة وأمي، فكيف أستبدلها بحلم آخر، لكن عمتي عاودت إرسالها إلى بيت عمي أبي أحمد، لأن أحد الشبان خطبها ولا بد له أن يطلبها منه. وعندما عرفت ذلك جن جنوني وكدت أقتل نفسي وفكرت في الانتحار غير مرّة لكنني كنت أتراجع في اللحظة الأخيرة. حاولت الاستنكار وطلبت من عمي أن يزوجني خدوج، لكنه رمقني بازدراء محاولاً إبعاد الفكرة من رأسي ومنعي من رؤيتها. ومع أن محاولاتي الكثيرة هذه باءت كلها بالفشل، لكنني لم أحتمل فكرة خسارتها قط، فتركت القرية وتوجهت إلى المدينة، وكنت أبكي غالباً في وحدتي. أعطاني أخي أحمد غرفة فوق

منزله على السطح بشكل موقت، فكنت لا أخرج منها طوال أسابيع. وبقيت على هذه الحالة أكثر من شهر بعد خطبة خدوج لإسماعيل، وقد حاول تهدئتي بعد فترة، واستطاع سحب ما ادخرته مع عمي أبي أحمد، وترك لي ما يكفيني لمصروف أسبوع لأنه قرر شراء المحل والبيت لي. إلا أنني لم أستطع البقاء ثانية واحدة. اتجهت إلى بيروت مع صديقي عبداللطيف الذي ولد في طرطوس وترعرع في طرابلس، والذي وعدني أن ينسيني الحزن بأكمله، فبهجة الحياة في كأس أو ثغر جميل. لن أنسى ذلك المشوار الجميل إلى بيروت، ولم أنسها فعلاً. لأنها من أجمل أيام حياتي، لأول مرة رأيت العالم الجميل يبتسم لي فلم أصدق فعلاً أننا في لبنان.

في مدينة الجن والعفاريت والجمال شربت ليلتئذ ما جعلني غير قادر على الوقوف، وكأني أرى فيلم حياتي كله، كنت أبكي وأضحك وأتذكر كيف كنا نجلس على حافة نهر أبي علي لنلتقط التفاح الذي يرمون به في النهر، أو كيف كانت عيوشا تقهقه بصوت العاهرات لتغيظنا، أو ربما لتجعلنا نتعارك مع عبدالغفور، لكننا كنا نتمنى لها الموت، ونحن ما زلنا في أعمار صغيرة. لا أستطيع نسيان كل ذلك دفعة واحدة. لكنني أحسست أنني خسرت خدوج إلى الأبد، ولم أرجع إلى طرابلس إلا بعد أسابيع، حيث استطعت إيجاد عمل في شارع الحمرا في بيروت في محل أحذية بهرني، وأعجب صاحبه ببراعتي في الدرز بعد أن اختبر درزتي واتفقنا على أن أتسلّم منه بضاعة، وأسلمها

إليه نهاية كل أسبوع. استمتعت جداً في بيروت، كان القدر يأخذ مني ويعطيني لأرضى ولا أعرف ما سر ذلك دائماً.

ليلتئذ احتفلنا أنا وعبداللطيف الذي يحمل نبتة غريبة وشريرة في نفسه وخصاله في جذب الإنسان نحوه؛ التقيت عبداللطيف أول مرة في مقهى أبي مراد عندما كنت أزور فاطمة، فأصبحنا لا نفترق إلا للعمل. شربنا حتى الثمالة وأحسست بالحرية التي كنت أنشدها منذ أن ولدت، فهنا لا ينظر الناس بعضهم إلى بعض ولا يتم تقييم الناس بما يفعلونه ليلاً. لأن عوالم ليل بيروت لا تشبه نهارها، ولم أستطع الذهاب إلى طرابلس قبل الخامسة عصراً، كي أتجنب حملقة البعض الساخرة، وحتى لا يشعر أخي أحمد بسكرتي التي أدخلتني في نشوة ولادة جديدة، فحملت البضائع ودخلت المحل الذي اشتراه لي أخي أحمد في سوق الخضار القديم في شارع الحراس حيث المحال القديمة الرابضة في التبانة، وما زالت شاهدة على فقر أصحابها. كان يكفي أن أمتلك محلاً كبيراً في شارع الزاهرية أو المئتين لأكون من وجهاء طرابلس أو من صانعي أحذية ذات ماركات غالية الأسعار لكن لا حظّ لي منذ ولدت؛ فهذا قدري الذي لم أصنعه والحمد لله. لأن الحياة فرضت عليّ أن أكون كل فترة من حياتي في أمكنة تختلف عن غيرها. ربما هذا ما منحني معرفة بالبشر، لكنه أخذ مني براءة صبي شبّ قبل أوانه.

مرت سنوات على عملي في بيروت وكل ليلة أمضيها كانت

بمنزلة النوم في الجنة والبقاء في نشوة الحياة والفرح حتى استطعت في فترة لا بأس بها تكوين نفسي والاعتماد على مهنتي، التي كانت تجلب لي ما أحتاج إليه، وما يجعلني قادراً على الزواج وتكوين أسرة. إلا أني كنت أشعر أن خدوج من نصيبي خصوصاً بعد أن تركت خطيبها وعادت إلى بيت الحاجة نورا.

صعدت درج منزلي في شارع ستاركو في التبانة الذي اشتريته فيما بعد، وكنت أحرص على عدم معرفة الجيران بي أكثر، لأني لا أحب ثرثراتهم التي تذكرني بثرثرات عيوشا، فقد كانت تقف ساعات مع أم عمر، ولا نستطيع النوم بعد الفجر.. إذ تبدأ عجقة الحدادين ومطارقهم الحديدية التي يهتز لها البيت أو أصوات الباعة. فتحت أم ديب زجاج باب البيت لتدس أنفها وتستكشف جارها الجديد أو من يصعد درج بيتها ولم أعرفها بنفسي لتبقى فضولية إلى ما شاء الله.

كان عبداللطيف في بعل الدقور رفيق دربي ومخزن أسراري. يمتلك غرفة صغيرة في بساتين الليمون بعيدة عن أعين الناس يلتقي فيها حبيبته أيضاً التي يبعدها عنه حين أكون معه، وكنت ألجأ إليه لنشرب معاً، وأنام عنده ولا أخرج إلا بعد أن أستحم وأعيد ترتيب نفسي. لأن أخي أحمد ما كان ليرضى البقاء معي في المحل لو علم أني أشرب، لكن نقطة عرق يا هدى تجعلني أطير وأحزن، فالحزن طعمه مختلف. أعرف أنك ستقولين إن أبي هذا غارق في المعاصي، لكني أؤمن بأن الله يعرف طيبة قلبي ويدرك أني عبده المظلوم في

الحياة، لكن المال لا يجلب السعادة والمرأة التي أنجبتني ماتت بعد ولادتي وأدخلتني الحياة من بوابة الحزن الكبير، لأنني حاولت إيجاد امرأة تشبهني ولم أجد أو ربما كنت أظن أنها خدوج البريئة براءة أمي عائشة التي ولدتني وتركتني بين يدي هذه وتلك، ورحلت إلى دنيا الحق بعيدة عن عبدالغفور وظلمه. والظالمة أيضاً ظلم عيوشا، لأنها لا تشبع من تكرار الكلام ولا بسط نفوذها على البيت. لا أعرف يا ابنتي كيف مضت الأيام، وكيف كان أخي أحمد يخاف عليّ خوف الأب على ابنه. أتصدقين، لقد كان يريد أن أتزوج، ويبحث لي عن عروس محاولاً إقناعي بترك فكرة الزواج بخدوج، ليطمئن إلي أكثر بما أنني امتلكت البيت والمحل، وعبدالغفور كان يأتي إلى المحل، ويأخذ ما في جيبي عنوة ليعطي المال لعيوشا، وكنت أجن وأشعر بعدها برغبة في البكاء، وهو من ترك أمي تموت قهراً وهي حامل بي، ولم يحرك ساكناً، ولم يحب حتى أولاده منها. كيف أنسى ما فعله بأختي فاطمة المسكينة التي تزوجت فقيراً معدماً كي تهرب من الظلم؟

حقيقة لا أعرف من أي عائلة أتيت. جل ما أعرفه أن أبا خالد الحموي علمني الرجولة بحق، وجعلني أدرك أن الإنسان بصمته وقلة كلامه، وبما ملكت يمينه. لكن لم أكن أرغب أن أولد يتيماً، ولا يختار المرء والده. لكن ربما يستطيع اختيار كيف يموت! وأين! ومتى! هذا ما كنت أفكر فيه.

كانت الكوشارية الداية القوية والأم الحنون على طريقتها وكل

ولد دخل إلى الحياة على يديها هو ابنها. يولد الأطفال في القرى المجاورة وحتى في المدينة بحضورها المبهج للنفس وضحكتها التي لا تفارق ثغرها حتى في أشد الحالات حزناً، والبعض منهم يولد ميتاً والبعض يولد يتيماً مثلي، لكن لا أعرف لماذا لم أولد ميتاً؟ لم أنس أمي يوماً يا هدى، ما سمعته عنها من جيرانها وأصحابها في القرية، ومن خالتي جعلني أشعر أن قلبها كقلب أختي فاطمة الصغير الحنون والمحبة والمظلومة أيضاً.

كانت الغرفة في بعل الدقور كناية عن غرفة من الحجارة المربعة والغليظة، سماكتها تكفي لشعور من بداخلها بأنه معزول عن الأصوات. كانت جنتي الصغيرة بعد بيروت، ولا أعرف كم استطاع عبداللطيف حفظ أسرارنا في هذه الغرفة، التي كانت تضمه أيضاً مع عشيقته، التي تترك بصمات شفتيها على الكؤوس، وشموعها المعطرة. كنت أعيش الهدوء والسكينة وأشرب العرق بعد أن أتحقق أن أخي أحمد لم يلحق بي. لم أكن أشعر بارتياح نظراته عندما يعلم أني سأنام عند عبداللطيف. أحاطت به الشكوك غالباً، فبات لا يفارقني بعد عودتنا من بيروت، لهذا أهرب منه وأقول له سأنام عند عبداللطيف، فيزداد غضبه ويتمتم بتعويذات من شيطان رجيم، لكن عبداللطيف في الحقيقة، كان كصبي القهوة بالنسبة إلي يجهز لي جلستي المازية، وأعطيه من المال ما يحلو لي، فكنت أشعر كأني آغا لم يعرفه التاريخ، والسر أن أُخبِرَ به أحد هو من الخاسرين، لهذا كان يحافظ على سرنا ويحاول كتمان موقع

هذه الغرفة التي لا يعرف مكانها سوانا، حيث كان يلتقي فيها حبيبته التي تترك بصمة شفتيها على الكأس وشموعها المقدسة ذات العطر الخزامي. أحياناً كنت أتخيل أنه عشق قديسة تضيء شموعها ليغفر الله لها الذنوب والخطايا.

كان الرزق وفيراً والخير بدأ يكثر معي ومع أخي أحمد الذي استقل عني فيما بعد واشترى دكاناً قرب سينما الدنيا التي أغلقت أبوابها بعد الحرب، لتصليح الراديوهات، وأجمل لحظاتنا معاً أنا وأحمد عندما نزور فاطمة وأولادها ونأخذ معنا الهدايا. لأنها كانت تعتز وتشمخ، وكأنها تسلقت قمة جبل تربل الغامض والمطل على البحر الذي كنا نتأمله من بيت الحاجة نورا، وتزداد فخراً بنا عندما نقبل يدها كأم لنكسب رضاها. لأنها الأخت التي ربتني وجعلت مني صبياً استطاع الهرب إلى بيت الكوشارية حيث بريصة وإبراهيم أبو زهرة وخدوج رفيقتي وحبيبتي آنذاك.

بعد زواجها بخلدون بأشهر بدأت عوارض الحمل تتعبها، لكن بنات خلدون كن يساعدن فاطمة بقلب عطوف على امرأة أحبتهن كأمهن، وكانت دائماً تلاعبهن وتمازحهن لتبعدهن عن العزلة المأسوية التي كانت تعيشها بعد وفاة أمها، فتركت لهن غرفتهن كما هي. بل زينتها لهن بالألعاب التي أتقنت خياطتها فاطمة إن بالإبرة وإن بالكروشيه الملون، إذ اعتادت فن الخياطة والتطريز وحتى شغل الكروشيه أو الصنارة الواحدة لتبيع ما تصنعه لجاراتها، فتساعد بذلك

خلدون زوجها الحنون الذي عشقها وأحبها كما لم يحب امرأة في حياته، على الرغم من أن شكلها بعد أن تكسرت أسنانها وشق جبينها بدا واضح الأثر جداً. إلا أنه لم يهتم بذلك وهي التي ترعى له بناته حق الرعاية دون أن تتغيب عنه أو عنهن لحظة واحدة، على الرغم من أنها كانت تتعب في شغل البيت وهي حامل.

مضحك كل هذا، لكني لم أنس أختي الحنون فيما بعد، حتى أخي محمود كان يزورها باستمرار ويتفقد بناتها اللواتي يسرعن للسلام على كل أقاربها. حتى الحاجة نورا أحبتهن لأن فاطمة تحبهن جداً، وقد طلب منها محمود مراراً أن تبحث له عن زوجة صالحة، فضحكت يومئذ، إذ كيف يمكن لرجل أن يتزوج هكذا باختيار من الآخرين. ربما لأنه دائم الخجل وصامت حتى عندما يزور خالتي الكوشارية التي تزوجت رجلاً من قرية عيدمون فبات الكل يناديها بالكوشارية نسبة إلى قرية الكواشرة التي ولدت فيها.

كانت تغضب منه لصمته الطويل. لكنه كان يحب رؤيتها لأنها تشبه أمي كما يقول، ويشعر بأن أمي تتقمصها وتصبح عائشة الكوشارية.

وحده طه استقل استقلالاً كاملاً عنا منذ دخل إلى الخدمة في الجيش، واشترى بيتاً في التبانة قرب دكاني كنت أراه عندما يأتي من الخدمة ويمر لإلقاء التحية ببرودة ولا أراه بعدها طوال أشهر. إلا أنه لم يبخل على فاطمة بزيارته لها أو مساعدتها وإغداق العطاء عليها حتى بعد أن تزوج جارة فاطمة ورزقه الله طفلة جميلة. تبرأ أبي منه وغضب

عليه، والمضحك أكثر أن أبي كره أن يتزوج طه امرأة متحررة كما يقول لا تضع إزارها على وجهها، ولم يكره النساء اللواتي كان يمارس معهن الحب قبل زواجه بعيوشا. وأسأل نفسي ألم يتبرأ أبي من أولاد الهبلة منذ زمن؟

كانت الحاجة نورا سيدة ذات هيبة ووقار، ولها حضورها وكلمتها في حارة التنك. بيتها المطل على ثكنة بهجت غانم كان ملاذاً للفقراء؛ فهي من أصحاب القلوب الطيبة رغم قساوة عصاها التي تقدح شرراً يستعيذ منها الشيطان نفسه. حرصت على الهدايا التي كنت أرسلها إلى زوجها عبدالله من أحذية وأحزمة جلدية فاخرة كي يثني على عملي وتهذيبي أمامها حتى إذا طلبت يد خدوج توافق هي فيوافق عمي أبو أحمد الذي كره مشاركتي في التظاهرات مع إبراهيم. إلا أبي، فعندما أطلب منه أن يتكلم مع عمي لأتزوج خدوج كان ينهال عليّ بالشتائم وينعتني بابن الهبلة قائلاً: «زواج الأقارب عقارب» رغم أنه تزوج قريبته، ويبدو أن العقارب لم تلدغه إنما لدغتني أنا. ابن الهبلة هذه كانت تغيظني وتجعلني أشعر بسكين أخي محمود التي تنحت العصي وتأكل من الخشب لتهذبه وتجعله جميلاً. وحجارة أخي طه التي تتطاير منها شرارات نارية كزند الحجر الذي كنت أنام عليه، وحتى عصا الحاجة نورا التي كان يخافها الكبير والصغير. كان يقول لي: «أنت كلامك بلا عقل ولا تفكير»، فأشعر بالغضب وأتمنى أن أرتشف برميلاً من العرق الزحلاوي لأنسى أنه أبي.

كنت أستلقي على سريري في البيت، فأشعر أنه متجمد وأن الفرشة التي على السرير هي التي ماتت عليها أمي، فأهبط على الأرض وأكمل نومي على قطعة من الفرو فرشتها كسجادة كي أنام عليها عندما أشعر بالأرق. أيقظني التفكير ذات ليلة، لماذا لا أحاول الكلام مع خدوج، وقد أصبحت بعمر ناضج وستفهم كلامي، ولا بد أن تدرك محبتي لها. لماذا لا أحمل لها الهدايا، وهي ابنة عمي أولاً وأخيراً وهي في بيت عمتي الآن بعيداً عن عمي أبي أحمد. اشتريت لها راديو صغيراً وبطارية ضوء لأنهم كانوا يحتاجون إليها في القرية، حيث لم تكن الكهرباء قد وصلت إلى عكار كلها بعد، إذ بقيت بعض القرى من دون كهرباء فترة طويلة.

دخلت بيت عمتي التي تجلس أمام نافذتها المطلة على مدخل حارة التنك وفي يدها منديل صغير أبيض تلوح به لأي جارة تمر من تحت نافذتها لتصعد وتشرب القهوة معها. كنت أشعر أنها سعيدة بجلوسها في علو والبيوت منخفضة من حولها، كأنها ذاك الرجل الذي يمارس هواية كش الحمام، أو كأنها تمارس بكواتيتها الصغرى في حارة التنك الفقيرة والمعدمة.

هكذا نحن الفقراء نمارس السلطة بعضنا على بعض وبدرجات منخفضة. تحدثت معها بصوت عال لتسمع خدوج صوتي، فتخرج من غرفتها. كان بيت عمتي في حارة التنك البيت الوحيد المطل على ثكنة الجيش، وهو في الطابق الأول من بنايتها؛ ففي الطابق الأرضي كانت

تسكن أم جورجيت التي تزوجت جندياً فرنسياً وأنجبت منه سعيد الأسود قبل أن يرحل إلى فرنسا تاركاً لها البلد والولد. إلا أن الجميع يعرفونها بأم جورجيت، لأنها تقطن في الطابق الأرضي. إلا أنها كانت تنظر إلى الداخل والخارج من بناية عمتي.

دخلت خدوج والوجه كالبدر المضيء أجمل من فاتن حمامة، التي تعشق عمر الشريف وأجمل من مريم فخرالدين بشعرها الأسود الفاحم الذي يغريني ويجعلني كالطفل الصغير الذي يرغب في اللعب بشعر أمه وهو في حضنها. أحست عمتي نورا بعمق نظراتي وأدركت بفطنتها النسوية عمق حبي لها، وقبل أن أناولها الراديو والبطارية قالت عمتي: خدوج ليست لك لا تفكر فيها يا رؤوف.

لماذا يا عمتي؟ هل تكرهينني؟

- وهل أكره ابني؟
- خدوج مدللة وأخي أبو أحمد لم يرزقه الله الصبي، أولاده جميعاً بنات وأنت لن تتحمل دلالها.
- يا عمتي عندي بيت وعندي محل وهي تركت خطيبها زوّجينا يا عمتي.
- نظرت إلي خدوج ضاحكة، أحبك يا رؤوف فأنت تحضر لي الهدايا.
- كيف ستتزوج يا رؤوف ابنة عمك أبي أحمد؟ هو لن يرضى لأن أخاه عبدالغفور أتعب الحاجة سعاد. ولم يحاول كسب رضاها.

- لا يهم يا عمتي سأحبها وأحافظ عليها وأهتم بها وأنت موجودة.
- أبوك لن يوافق وأبو أحمد لن يعطي ابنته لابن أخيه غصباً عنه.
- لاعليك يا عمتي من أبي سيوافق.
- يا رؤوف هذا ليس حبّاً، هذا زواج فقط وأنت وخدوج كالإخوة.
- لا يا عمتي أنا أحبها.

جيد سأحاول إقناع أبي أحمد عندما يأتي لزيارة البنات، ولكن إياك وكثرة المجيء إلى هنا وإلا لن أعطيك خدوج.

- حاضر عمتي.

هبطت درج حارة البرانية كالغزال، والدم في عروقي يضج بالحياة، أحسست بالأمل يشدو والحياة تضحك لي. واتخذت قراري بالعمل ليل نهار لأشتري لوازم الخطبة لخدوج ولأعطي أبي كم ليرة كي يطلب يد خدوج من أخيه دون اعتراض لأني أعرف أن هذا ما سيرضيه، وهذا فقط ما سيجعله يوافق على خطبة ابنة عمي .

مرت الكوابيس سريعة والانتظار العاصف خفت حرقته بعد مرور الأيام والأشهر على خطبتنا. وكنت قليل الجلوس مع خدوج ولا يسمح لي برؤيتها إلا نادراً، ولم أصدق أن الحاجة نورا أنهت جهاز خدوج وبدأت الإعداد لزواجنا الصامت الذي اقتصر على العائلة فقط.

تزوجنا واشتريت لها كل ما يلزم، ولم أبخل عليها يوماً، لأني أدرك أنها عاشت في بحبوحة ودلال، لكن الحزن ما لبث أن هبط عليّ عندما أصبحت خدوج حاملاً؛ قبل الحمل كنا نسهر في سينما الأهرام أو الروكسي في التبانة، ونستمتع بليل طرابلس الهادىء، ونركب عربة الخيل، وأسمع ضحكاتها فيطير قلبي، لكن الحمل أتعبها والحرب فيما بعد قضت على ما تبقى؛ حتى طرابلس أتعبتها الحروب والحمل بالبغضاء والكراهية بين المذاهب المتناحرة. كانت دائماً في بيت عمتي لأنها لا تستطيع البقاء في البيت وحدها من عوارض الحمل المتعبة التي أصابتها، وفي الحقيقة أصابني الحمل بالخوف، وخفت أن تموت خدوج كأمي ويصبح ابني يتيماً مثلي، فكنت أغضب جداً عندما أراها متعبة وأهرب من البيت إلى غرفة بعل الدقور لأشرب وأنسى ليلة لا أحب التفكير فيها في ما يتعبني، فأتعب أكثر لكنني أشعر بنشوة تخدرني تعيدني إلى رؤوف آخر.

خرجت من غرفة بعل الدقور لأجد المحل مغلقاً. ذهبت إلى بيت أخي أحمد لأستفسر، فقالت لي زوجة أخي إن محمود سقط في النهر وارتطم رأسه بصخرة، وهو في المستشفى، فجن جنوني ولم أستطع الوصول إلى المستشفى، إلا عصراً لأن أخي أحمد تمّ نقله إلى أوتيل ديو في بيروت لخطورة إصابته. إذ أصيب بارتجاج في المخ، ولا ندري كيف سيكون إلى أن يستفيق من الغيبوبة. بقيت في بيروت ثلاثة أيام كنت أمشي في الحمرا وأستريح في مقاهيها. سمعت عن ميدان

سباق الخيل في بيروت وأثار فضولي معرفته، وكيف يمكن أن يحقق الربح لمن يتقن الرهان على الأحصنة. سمعت ذلك ذات مرة من أحد الجالسين حول طاولة في مقهى التل العليا «ما لم تكن قد راهنت على الحصان الخطأ، فهذا يعني أنك ستربح من المؤكد» .

أحسست بروح المغامرة وقررت معرفة ما يتكلمون عنه، فاتجهت نحوهم وسألتهم وفهمت تفاصيل اللعبة وقررت خوضها، لكن بعد أن يتماثل محمود للشفاء. إلا أن محمود أصيب بنقطة دماء في دماغه، وهذا يعني أنه سيكون عليه المثابرة على شرب الدواء دائماً. محمود لم يتقبل إصابته بالصرع، ورفض رفضاً قاطعاً البقاء مع خطيبته، وانعزل بعدها بشكل أكبر، واشترى غرفة صغيرة قرب فرن أبي عشير وبقي بين الغرفة والفرن يكبر بصمت وعزلة وحكمة على لسانه لمن يحادثهم ويحبون أحاديثه، ولم يحاول الإصرار على الدخول في الحياة أو التفكير في الزواج. لكني ذهبت بعدها إلى ميدان سباق الخيل وتعلمت المراهنات، فكنت أكسب وأخسر وأعيش أيامي كرجل غني في بيروت ورجل فقير في طرابلس لأن خدوج بعد ولادة ابننا الأول أصبح هو كل حياتها، وكانت تنساني ليلاً وحيداً في سريري لتنام مع ابنها خوفاً عليه من الحمل من جديد بابننا الثاني وتعيد الأيام نفسها.

انتقلنا إلى العيش في حارة البقار قرب عمتي، تلك الحارة الناشئة الحديثة في أبنيتها، واشترينا البيت في الطابق الخامس، لتطل خدوج من بعيد فترى بيت عمتها نورا. هكذا كانت رغبة عمتي أيضاً لتبقى

خدوج قريبة من أخواتها اللواتي تزوجن، ومن عمتها نورا، وهذا كان يجعلني مطمئناً لأنها قريبة من عمتي. كانت الحارة دافئة ومحبة بعضها لبعض، كنا أشبه بقرية صغيرة في أبنية عالية وشوارع نظيفة. والأحصنة المختالة فيها تجر خلفها الطنبر لبيع الكاز، إذ إن البوابير لم تكن تعمل على الغاز يومذاك. لكن الحارة كانت جميلة ومشرقة في تلك الأيام بل كجنة في طرابلس، لأنها تعلو عن التبانة وتتمتع بالهواء البارد ليلاً وبمياهها الرشعينية. صحيح أنها ملاصقة لحارة التنك، ولجبل محسن، وللتبانة أيضاً، إلا أنها كالمنارة التي تشع بالحياة. فقد عشنا عشر سنوات من أجمل السنين الهادئة معاً وثلاثة أبناء، أنت من بينهم أجمل هدية يا هدى. إلا أن الحرب وضعت أوزارها وحطت الكارثة على طرابلس بعد أن قتل أبو علي في التبانة، وتغلبت المآسي على الأفراح، وانقلبت حياة حارة البقار رأساً على عقب بعد أن سال الكثير من الدماء على ترابها الذي شهد على المعارك الطاحنة بين أبناء منطقتين اندمجتا في صراع إخوة قاتل.

لم يسلم البعض من سكان حارة البقار من خلافات الإخوة بين جبل محسن والتبانة، والخراب امتد إلى الأصحاب والجيران، ففي كل معركة خسارة إنسان أو يد إنسان أو جثة متفحمة أو طفل فقد أفراد عائلته. هُجّرت الحارة، وبقي فيها من ليس لهم قرية في عكار أو بيت في جرود الضنية أو حتى أعمالهم تفرض عليهم البقاء في حارة لم تعد البيوت فيها تباع أو تشترى. بدأت الفتنة تشتعل وتشتد بين جبل محسن

والتبانة، وكل يوم في عراك وهدنة. اشتعل فتيل هذه الحرب ولم يعد يحتاج البعض إلا إلى النجاة من مرمى النيران، واجتاحت الأسواق البطالة، وبدأ العمل يتراجع، ودبّ الخلاف بيني وبين خدوج مثلما يدب بين جبل محسن والتبانة، فما أن نهدأ حتى نشتبك من جديد، فهي غير معتادة الفقر وأغلقت غالبية المحال أبوابها حتى سينما الدنيا التي كانت فشة خلق لهذا الشعب الفقير أغلقت أبوابها. من ثم مات عبدالغفور شحيحاً من كل شيء إلا من اهتمام عيوشا التي أنهكته حتى آخر نقطة في روحه، تاركاً لإخوتي أماً لا تشبع. لأنها فرضت علينا بحكم المحكمة نفقة ندفعها أنا وإخوتي أحمد وطه ومحمود، فازدادت الحاجة إلى المال وبدأت أعمل ليل نهار لأكمل حاجات المصاريف وسط الخوف والألم والحاجة إلى الهروب من ذلك.

اختفى عبداللطيف بعد أن تزوج أسترالية تعرف إليها من خلال أخيه لتعطيه الجنسية ويرحل للعمل في أستراليا تاركاً عشيقته دون السؤال عنها كما قال لي بأنها نزوة ومضت لأنها لا ترضى الزواج به وهو الفقير المعدم، وإن وافقت كيف سنعيش يا رجل، لا أعرف حقيقة كيف استطاع أن يبتعد عنها، وغرفة بعل الدقور دمرتها القذائف بين منطقتي جبل محسن والتبانة، كما دمرت المقاهي والمطاعم، وازدادت المعارك ضراوة، فاضطررت إلى أخذ خدوج إلى بيت أهلها في عكار لأبقى في دكاني، لأعمل فيه وهو مغلق أنام فيه وأبقى فيه الأيام والليالي مع أصوات القذائف التي تمطر، والتي أتت على الأخضر واليابس في

طرابلس، حتى الكوليرا التي حصدت الكثير، ولم ينج منها أخي طه هو وعائلته، فقد مات هو وزوجته وابنته، وكأنه عام النكبة. لكن الليلة الأخيرة التي قضيتها في الغرفة كانت ليلة اختليت فيها مع ذاتي وأمعنت التفكير في حياتي فأحسست أنها طويلة جداً ومضجرة، وأني لم أولد لأكون ابن القهوجي عبدالغفور الذي أنكرنا، كأننا لم نولد إلا ليناديننا أولاد الهبلة، وأمي ما كانت إلا قديسة تطيب لها ساعات البقاء قربنا كما قال لي أخي أحمد وأخي طه وفاطمة التي عاشت قساوة الحياة ومرارتها، وها هي تتذوق الحرب، لأن بيتها على الخطوط الحامية في المعارك، التي لا نعرف متى تبدأ ولا تنتهي إلا لتبدأ من جديد، وما كان عليها إلا الرحيل نحو الكويخات قرية زوجها في عكار، لتبقى معه قرب أولادها الذين يحبونها وتحبهم. حقيقة لا أدري أي حرب هذه التي بدأت ونحن ننتظر نهايتها.

ينقبض صدري عندما أشعر أن أولاد عيوشا هم إخوتي وأحبهم رغم قساوة قلب أمهم. لا أدري من أي نوع من النساء هي، ولا كيف أحبها عبدالغفور. لا أعرف أن القلوب التي كالحجارة تجذب إليها العشاق. لا يمكن أن أتفرس في وجه أخي مصطفى فأرى فيه وجه أمه، ولا في وجه أختي سناء التي تشبه أمها أن أضمها إلى صدري دون أن يقشعر بدني، وأشعر أنها كأمها ربما في داخلها صخرة جلمودية وليس قلب بشر! الحرب التي أنا أعيش وسطها أرحم بكثير من الحياة مع تلك التي تسمى عيوشا.

أحسست بالوحدة مجدداً بعد وفاة أبي، الذي ترك لنا نفقة ندفعها لعيوشا وبعد أن فقدنا أخي طه وعائلته، فإخوتي مازالوا صغاراً، وكانت الحياة تقضي على أبناء عبدالغفور في حياته وبعد مماته، فأحضرت أخي مصطفى إلى محلي ليعمل معي ويساعدني في إعداد الطلبيات التي كثفتها إلى بيروت الغربية رغم الحصارات والأعاصير الدامية لتقضي الحرب نهائياً على عملي في بيروت. أصبحت الأسواق في التبانة لا ندري متى تكتظ، ومتى تصبح ساحة حرب أسابيع وأحياناً أشهراً، وكنت أمنح مصطفى أسبوعية كمساعدة مالية له ليكمل دراسته. لكن عيوشا كعادتها المولعة بتدمير الأنفس أجبرته على ترك دراسته ليبقى معي ويتعلم المهنة، إلا أنه لم يحافظ على أسراري كما طلبت منه، بل كان يخبر خدوج بكل تفاصيل المراهنات التي كنت أمارسها من وقت إلى آخر، فيسترق السمع ويخبرها بتفاصيل تكفي لتشن معركتها ضدي، وتزداد خلافتنا بعد أن عرفت أني كنت أذهب إلى بيروت لألعب في ميدان سباق الخيل أو لكي أستمتع بشرب الخمر في بعض الليالي، وها قد افتضح سري الجميل، فما من شيء سيخيفني إلا أن غضب أخي أحمد بات كشيخ واعظ لا ينهي درسه إلا ليبدأ آخر.

بفارغ الصبر انتظرت إنهاء الطلبية لأذهب إلى سوريا حيث المجد الحموي القديم الذي أشعر به. لم تكن الحرب لتخيفني رغم أنها قد امتدت بشكل كبير إلى شوارع طرابلس، لكنها لم تمس طموحي إلى توسيع عملي بعد أن أغلقت الحرب نافذة بيروت التي باتت خراباً،

وأنا متحرر من كل الوصايا، والعيوب والخطايا. كنت أشعر كأني طفل ولد مع العراة في فصل شتائي له متعته بالبرودة، وكأني أتعمد بالماء وأتوضأ من قساوة عيوشا وعبدالغفور محاولاً النسيان فلا أنسى. إلا أنني في غمرة هذا كله وجدت الحب الذي ضخ بي لهب الحياة. لأني ما إن خطوت خطوة إلى التاكسي في عودتي إلى خدوج حتى رأيت امرأة في حالة هيستيرية، لأن جزدانها انتشله أحد الذين مروا بسرعة وهي تصعد إلى التاكسي قرب ساعة التل في طرابلس بعد وصولي من سوريا. حاولت تهدئتها إلا أنها لم تهدأ إلا بعد أن تكفلت بإيصالها إلى بيتها في جبل محسن، واستغربت كيف تعيش وحدها. ألا تخاف كل المعارك التي تحدث فجأة، وكل هذه الأخبار التي نسمعها عن أوضاع لبنان الزرية وهي وحيدة كما أخبرتني وتسكن قربي لا يفصل بيننا إلا بعض الأبنية، فقالت بأن ما يبقيها هناك هو ما يجبرني على البقاء في طرابلس، فضحكت لأن ما يبقيني هو أني ابن طرابلس ومعظم أعمالي في طرابلس وأني حالياً أتاجر مع الشام وطرطوس واللاذقية. فلماذا بقاؤك أنت تحت قسوة المعارك؟

- نعم.. لأنني لا أستطيع ترك بيتي في جبل محسن فهذا بيت أمي.
- كما تريدين.

وجلسنا بصمت كل منا يتمنى أن يحادث الآخر مرة أخرى، رافقتها حتى بيتها في جبل محسن وأخذت مني عنوان دكاني في التبانة

ووعدت بأن تزورني بعد أن تهدأ الأوضاع وتطمئن إلى أمها التي تركتها عند أقاربها في طرطوس، لأنها تحتاج إلى عناية يومية وغسل كلى، وهي لا تستطيع ذلك جراء النزاع المسلح الذي لا يرحم بين جبل محسن والتبانة، وخصوصاً أنها دائماً تهرب إلى بيوت أقاربها عند أي نزاع خطير، ولا تستطيع أخذ أمها العاجزة معها وهي تخاف عليها جداً فأحسست بالعجز وأن الله ينعم علينا بالكثير، ولا ندرك نعمته حتى ندرك قوة ما يعيشه الآخرون من أحزان، وتركتها متوجهاً إلى بيت عمتي نورا لأطمئن إليها بعد المعركة الأخيرة. كانت عمتي كعادتها في كل مرة بعد انتهاء معركة ما توزّع الطعام على أبناء بنايتها بالتساوي، والكل في عجقة المولد الليلة بعد أن مر النزاع المسلح هذه المرة دون خسارة في الأرواح، فكلما وقعت الخلافات في الحارة بين مسلحي جبل محسن والتبانة كانت تقرأ المولد لسلامة الجميع.

تركت عمتي وتوجهت إلى عكار لأحضر خدوج الحامل بابننا الرابع إلى المنزل، لكنها أصرت على البقاء في القرية أسبوعاً آخر فأحسست أن رغبتها تليق برغبتي، لا تعرف بصاحبة الفستان الأحمر أكثر وأزورها مرة أخرى دون أن أنشغل بخدوج والأولاد. تركت لها من المال ما يكفيها وودعتها بعد أن ودعت عمي أبا أحمد الذي أصبح عجوزاً، وغير قادر على الحركة بسرعة لأعود أدراجي إلى دكاني وأكمل عملي وألتقي صاحبة الوجه الأسمر. انطلقت في سيارة حسن صبحة المرسيدس ١٩٠ التي كانت أحدث سيارات الأجرة آنذاك. ولم

أحلم بامتلاك سيارة، لا أدري لماذا إلا بعد أن تعرفت إلى عفاف، ربما لأنها تبدو على فطرتها كامرأة لا تخاف الأقاويل، ورغم أننا من طرفي النزاع في جبل محسن وحارة البقار ، فكان لا بد من أن أشتري سيارة لنذهب معاً بعيداً عن عيون الناس، الذين كانوا ينظرون إليها كمطلقة وضعت أمها عند أقاربها لتعيش كما تريد، إلا أن الحقيقة غير ذلك. كنا نجول معاً في أسواق بيروت كعشاق يهربون من الخيال إلى واقع يصنعونه بأيديهم، ولم أشعر بجمال الحياة إلا معها. وهذا انعكس على خدوج أيضاً لأني أصبحت أكثر تقبلاً لكلامها، فتشكو وتشكو مثل عيوشا وأسمعها وتفكيري كله مع عفاف. لكنني أترك لها ما يكفيها من المال وأنصرف حيث متعتي الحقيقية بين رائحة الجلد والأحذية وأغاني الترانزسستور ترافقني حتى المساء إلى أن أمر قرب بيت عفاف وأشم رائحتها من بعيد وأرى وجهها الأسمر يطل من النافذة في حارتها الكالحة.

كنت أعلم أنني كالمجنون أبحث عن امرأة مختلفة في ظل كل هذا التعب الذي أعيشه لأوقظ الأشواق الغافية في الروح التي تعشق خدوج، لكن محبتي لها مقدسة، أراها كالملاك الطاهر عندما أدخل إلى البيت، وهي تحضن ابننا فأشعر وكأنها أمي التي كانت لا تهتم إلا بأولادها، لكن يا هدى الرجل بحاجة إلى امرأة تطوق قلبه المتعب، وتعمل على تفريغ الطاقات السلبية التي يتعرض لها طوال النهار، وإلا كيف يكمل الحياة وهو يصارع حروبه الصغيرة والكبيرة لكسب الحياة؟

كانت عفاف ترسل الأموال إلى أمها في طرطوس كما تقول لي مع إحدى صديقاتها التي نلتقيها قرب ساعة التل عندما نكون معاً، وهي ترجوها أن تسلمها الأغراض التي اشترتها لها من السوق، وبعد سفر صديقتها كانت ترسل إليها الحاجات والمال مع رجل كانت تقول إنه من أقارب أمها، وتتعمد في ذلك التأكيد لي أنها لا تستطيع تركي ولو ليلة واحدة دون رؤيتي، وهذا كان يسعدني وفي الوقت نفسه يحيرني لماذا لا تقبل الزواج بي وينتهي الأمر؟ ماذا تنتظر لتتخذ قرارها؟ سألتها عن ذلك مراراً دون أن أفرض عليها الجواب الذي يسر نفسي. كانت تناصر فكرة الزواج مرة ثانية وتؤمن أن الرجل الحقيقي هو الذي يسعى إلى الالتزام بامرأة هي أم أولاده التي يجب أن يحافظ عليها وأن أعشق امرأة أخرى.

ما زالت طفولتي تتعبني وتلك التي تسمى عيوشا تغيظني كلما طلب مني أخي مصطفى بعض المال له ولياسين، ولا أعرف ما الذي تفعله بالنفقة التي فرضتها على أولاد الهبلة كما كان يقول أبي. تجاعيد القهر التي أغطيها بعلاقتي بعفاف هي جزء من أسطورة لا أصدقها حتى الآن. أنا نفسي أظنها من ذاكرة الأحداث المختبئة بين شقوق السعادة التي تمر في حياتي كالخيال. سحبت آخر مجة من سيكارتي، وأنا في انتظارها أمام البيت المصاب بطلقات الرصاص والقذائف في حارات جبل محسن الضيقة، كان البعض يتساءل عن الوجه الجديد الذي يراه في هذا الحي لأول مرة. لكني لم أهتم، نفضت خمول الانتظار عني

واستقبلتها بابتسامة اشتياق لها لذة اللقاء الودي البعيد عن أي قبلة أو عناق حذراً منا لأننا في الحي الذي تسكنه، وفي الحقيقة خوفاً من كلام جيرانها، أو من متحذلق يهدر دمنا أو يجلدنا حتى الموت. ببساطة، المحبة من الله وهو من يربط القلوب بعضها ببعض ليتهم يعلمون.

ربما هي قدري المجهول الذي التقيته أو صنعته لا فرق، وبقي معي طوال الأحداث التي اشتعلت مع الصراع بين جبل محسن والتبانة الذي لم نفهم أسراره رغم أننا أبناء المنطقة الواحدة. كل ما أدركه أن هذه المغامرة كنت أحتاج إليها لطرد الخوف والحزن عني. الخوف على خدوج والأولاد في ظل كل هذه المعارك، والحزن على المرأة التي بحثت عنها في حياتي ولم أجدها. لم أشعر بالاطمئنان إلا مع عفاف وعندما أمسك شفتيها الخمريتين بين أصابعي ترتفع نسبة الرجولة لدي، فأشعر أني قائد هذه الأمة التي تتخبط في نزاعاتها، وأشعر بالسلام المعلق على جناح حمامة أو هو منديل عمتي الأبيض الذي تلوح به لصويحباتها.

وصلنا إلى الميناء دون أن نشعر أننا مشينا كل هذه المسافة من جبل محسن إلى بعل الدراويش إلى المينا، وكنا نتحدث عن الحياة التي عشناها في الحي نفسه تقريباً، لأنها كانت تسكن بداية في السويقة قرب نهر أبو علي، ومن ثم انتقلت مع أمها بعد وفاة أبيها إلى بعل الدراويش وبعدها إلى جبل محسن في حارة ضيقة، لتكون قريبة من مصنع الألبسة الذي تعمل فيه.

مشينا قرب البحر وجلسنا على رماله ونسينا أننا في طرابلس بعد أن غمر الليل ضوء النهار، وضممتها كما يضم الطفل الرضيع أمه وغفونا دون أن نشعر بضوء الفجر، والسعادة لم تغمرنا يوماً كما غمرتنا في هذه اللحظات أقله بالنسبة إلي. تأملتها في لحظات الفجر الأولى، وطلبت منها البقاء متكئة على صدري. لأننا لم نستطع الدخول إلى جبل محسن ليلاً. من المؤكد أن المسلحين لن يتركونا بخير سيسألون ويسألون ويخافون من الغريب الذي يدخل منطقتهم إلا أني لست كذلك، لكن الحروب تشعل الخوف في الأنفس وتصبح حتى الحمامة كالغراب في أعين الجميع. كنت غارقاً في فوضى التفكير ولم أستطع إلا أن أجمّد أي إحساس بالخوف من فقدانها. غفت مجدداً على صدري، وهي تداعب زبد همومي لهذا الحب الذي ولد في تاكسي بعد العودة من سوريا.

كنت أسير فوق هاوية أحلامي التي أخذتني إلى الزمن الجميل مع أغاني كارم محمود وأفلام الحب التي أدمنت حضورها في سينما روكسي في التبانة قبل إغلاقها نهائياً جراء الاشتباكات. سمعت صوت دوي الرصاص من بعيد ولم أستطع إغلاق السمع أو أن أطير بها على بساط الريح كي لا تصحو وتبقى على صدري إلى الأبد، فشعرها الذي يستريح بين أصابعي انسحب كالبرق من جفلة الأصوات التي تسربت إلى سمعها، فصرخت رؤوف يبدو أن المشاكل تجددت في التبانة ما العمل الآن؟

أمسكت يدها ومررنا بين أكواخ القصب المتكومة على البحر في الميناء وسألتها هل أنت جاهزة للجنون؟ لكنها رفضت وقالت لي لم نتعارف إلا منذ أيام لا أنكر أنك رجل على خلق وأحببتك، لكن لا يمكنني الذهاب معك في كل مكان ربما مر أحد أقارب أمي ورآنا سيقتلونني يقيناً. هم أضاعوا أمي في زحمة الاشتباكات، لكنهم عند الشرف سيحضرون يا رؤوف.

- لا تخافي يا عفاف أنت مع رؤوف.
- لأنني معك يا رؤوف أخاف عليك.
- يا عفاف..
- هيا يا رؤوف لنذهب.

لم أسألها من هم أقاربها، وإن كانت مستمتعة بالبقاء في طرابلس رغم الاشتباكات التي تهدأ وتتجدد. كنت أشتري لها الملابس الداخلية التي كان يعرضها جاري حجازي في محله قرب بركة الملاحة في سوق البازركان، وأشعر أنها فُصّلت خصوصاً لعفاف حتى أني أشتري لها الأحذية بنفسي، ولم تعترض يوماً كما تعترض خدوج وتنعتني بأن ذوقي غير لائق في اختيار الملابس الداخلية، وهذا من مهام المرأة لأنها تدرك ما يتناسب ومقاييس جسدها أكثر وبشكل أفضل، بل كانت تطير فرحاً وترتدي ما أشتريه لها برغبة تجعلني أرى عشقها وإثارة افتتاني بها في كل مرة ترتدي تلك الملابس كأنها تقول لي أحبك رؤوف وأشكر اهتمامك بي. كانت تشكرني وهي تمنحني كل هذه الرجولة والجمال.

مشينا إلى أن وصلت إلى مشارف بعل الدراويش، فرأينا بعض المسلحين أمام أكياس وضعوها كحواجز لم تكن من قبل تفرقنا كي لا نثير الشبهات وتوجهت إلى التبانة. إلا أنها كانت مغلقة تماماً بحواجز أيضاً من أكياس البطاطا والبصل التي وضعوها لإغلاق الطرقات عنوة، فتسللت من أحد زواريب الأحياء القديمة نحو السويقة لأصعد إلى القبة لأتفقد خدوج والأولاد. لم أجد خدوج في البيت وتوقعت أنها ستكون عند عمتي نورا لكن الباب مغلق وما من أحد في بناية عمتي. إلا أن ابن الفران أبي عشير قال لي بأن تاكسي أسود أقلتهم إلى القرية. أخذت نفساً عميقاً وقلت الحمد لله، يبدو أن المعارك اليوم ستطول ولا ندري ما الذي سيحدث بعد هذا التصعيد.

نمت ليلتئذ وأزيز الرصاص لم يهدأ، وفي الحروب ما من انتصار ولا خسارة في ظل الدمار الإنساني قبل الحجري، ولا أعرف ما الذي حدث لإخوتي ولأحمد والمحل، وهل استطاع أحمد إغلاق المحل والهروب إلى بيت أبي القديم في السويقة، لأنه حجري ويستطيع أن يحتمي به هو وعائلته، وأيضاً عفاف هي في جحيم الصراع. بل في طاحونة اللحم البشري حيث الأشلاء التي يحاول البعض إزالتها بعد كل معركة. كانت الدماء تنساب على الأرض عند طلعة العمري، كنهر أبي علي في حالات جفافه أو انخفاض منسوب مياهه، ولم أنس يوم نظرت من نافذة غرفة النوم نحو جبل محسن، فرأيت الدخان يتصاعد من منزل جيران عفاف فدب الذعر في قلبي، ولم أنم وجلست أستمع إلى الراديو لعل خبر الهدنة يوقف توتر أعصابي.

بدأت الأحداث تستنزف المال الذي ادخرته، خصوصاً وأن أعمال الفوضى فرضت خسارة كبيرة على أصحاب المحال التي تحتاج إلى حماية في ظل الفوضى الكبيرة التي ضربت طرابلس، والمحل باب رزقي غالباً مغلق، والدخول إلى التبانة لا يخلو من الخطر وخدوج لا تريد ترك القرية في ظل كل هذا الخوف. وحدها عفاف كانت تكتشفني في كل مرة نلتقي فيها أخاف وداعها وتخاف وداعي. لم تطلب الزواج بي، كنت أدرك خوفها الباطني من ذلك عندما تشعل شموعها المعطرة وتدعو الله رافعة يديها لأن يحمي العالم، وبإيمان وخشوع تجعلني في دهشة من هذه المرأة الغريبة الأطوار. ظنت في البداية أنها علاقة عابرة في قلب رجل سيتركها بعد الاستمتاع بها، وقد اعترفت لي بذلك، لكنها أيقنت حبي لها بعد إصراري على الزواج بها، ورغم ذلك رفضت، وهذا ما يثير جنوني حتى الآن.

دخلنا ذات مرة إلى الجبل، وكلما اقترب مسلح ما مني كانت تقول له: «هذا خطيبي» ونكمل لتجعلني أرى الخراب الذي تسببت به الحروب التي تقضي على الإنسان، وكانت تسألني كيف يقتل الإنسان إنساناً آخر؟ فأصمت وأتخيل موت أمي، ألم يقتلها الفقر؟ أعجز عن مجابهة القدر كما أعجز عن قطع علاقتي بعفاف التي أشعر أنها باتت وجودي كله ربما لا أستطيع الإجابة! هي لعبة الحياة الكبرى التي تجعلنا كخيوط العنكبوت عندما تتشابك، فيصعب إعادتها كما كانت. لكن في نفسي كنت ألعن الحرب ومن يشارك فيها. لأن حياتي ما هي

إلا حروب متواصلة لا تنتهي وأنا أبحث عن السلام، ويبدو أن السلام لا يمكن الحصول عليه إلا عندما تستريح الروح من تعب الجسد، أو عندما يتعب الشعب من الاقتتال والوقوف صفاً واحداً لتحقيق السلام.

كنتِ يومئذ يا هدى ابنة عشر سنوات، كنت أرى فيك ذاتي وأشتاق إليك اشتياقي إلى أمي. كان استقبالك لي كاستقبال عفاف عندما تتعلق برقبتي، وهي تحاول إعادة ربطة عنقي كما كانت ومن ثم تمسح خدي برقة. كان لا بد من إحضاركم إلى البيت، لأن الوضع في حارة البقار استقر. اشتريت سيارة قبل أن ينفد المال، واستأجرت محلاً جديداً في الأسواق وقررت تغيير المهنة. آخر مرة يوم كنت في أسواق شارع الحمراء في بيروت رأيت أول بيت من الجلد للمسدس واستطعت بنظرة حفظ تصميمه لأبدأ بصنع بيوت المسدسات الجلدية التي اشتهرت بها فيما بعد. جهزت لكل شيء وطلبت من أخي أحمد الإبقاء على المحل في شارع ستاركو في التبانة كما هو.

ومررت قرب بيت عفاف لأراها رغم الخطر الذي كان من الممكن أن يصيبني. كانت تقف غير بعيد قرب دكان تحت بيتها، فتركت لإشارة دخان سيكارتي أن تبلغها لنلتقي على البحر قرب سكة القطار حيث كنا قد اتفقنا على هذه الإشاره. سبقتها إلى هناك تاركاً سيارة الفيات خلف محطة القطار المهجورة، وجلست أكمل سيجارتي السادسة قبل أن تصل وأعانقها حتى ارتعشت روحي، فسألتها: أتفضلين البقاء هنا أم نذهب إلى البحر؟ فقالت: لا نبقى هنا. صار البقاء هكذا أمراً مستحيلاً،

أخاف عليك البقاء في بعل الدراويش غير الآمن أخاف إصابتك فأخسرك، وأخسر هذا الحب الذي لا أطيق خسارته. لن تخسره، «عزرايل ما بيخرب بيته» لن أموت لا تخف، وضحكت بصوت عال جداً تمنيت أن تطول ضحكتها التي تخترق حواسي وتستقر في أعماق قلبي الذي بات معلقاً بها. حياتي لم تعد تتسع لخسارات نسائية يا عفاف، أمي ومن ثم أختي فاطمة التي تزوجت ورحلت عنها ولا قدر الله أنتِ لا أحتمل، صدقيني.

- وزوجتك يا رؤوف.
- لها حقوقها وواجباتها ولي حقوقي وواجباتي، لست مقصراً معها ولا مع الأولاد، كل ما تريده يصل إليها وهي لا تهتم بأمري.
- كيف ذلك يا رؤوف.
- هي تهتم بالأولاد ولم أشعر بحبي لها كما أشعر بحبي لك يا عفاف..

سيقتحم الليلة الشباب الأسواق الداخلية يجب أن أعود إلى البيت قبل أن تبدأ المشاكل مجدداً وأبقى هنا على سكة القطار أنتظر الفرج. من أخبرك ذلك، هكذا سمعت من بعض المسلحين وأنا في طريقي إليك. أحدهم قال لي لا تتأخري في العودة ربما بدأ الهجوم علينا مبكراً الليلة.

- عفاف هيا سأوصلك حتى مشارف الحي.

- لا يا رؤوف الوضع خطر وأخاف أن يتعرض لك أحد المسلحين.
- لا تخافي.
- بل سأخاف.

فتحت باب السيارة وقلت لها اصعدي فتجمدت مكانها، ونظرت إلي واضعة يدها على فمها الصغير كالقرنفلة، فضحكت وصعدت لتجلس قربي، وأكملنا طريقنا إلى جرود مجدليا ومن ثم طلبت مني مرافقتها إلى بشمزين لتزور قبر أحد أقاربها هناك، وبقينا لحظات في نشوة لقاء لا أستطيع نسيانه أبداً ومن ثم تسوقنا وشربنا الشاي، بعد ذلك تغدينا في مطعم ومقهى الجزار في سير لأنها كانت شاحبة جداً. ونبهتها أن عليها أن تهتم بغذائها لتزداد سمنة قليلاً. كان صوتها عندما تحادثني أشبه بصوت نجاة الصغيرة أو أمواج البحر، لأتركها بعدها أمام نادي الضباط قرب حارة التنك من الخلف، وأكمل نحو عكار لأحضر خدوج إلى البيت، لأني أشتاق إلى الأولاد وإلى عائلتي التي لا غنى عنها أبداً..

مساء ذلك اليوم كانت أم أحمد تنتظرني وقد جهزت لي العشاء الفاخر ولأول مرة زوجة عمي عبلة تحتفل بي، كانت قد جمعت أوراق البيوت والأراضي التي يمتلكها عمي أبو أحمد رحمه الله وأعطتني هي كعهدة جعلتني أشعر بالثقة التي تشعر بها زوجة عمي نحوي، فأنا صهرها الخامس. سألتها لماذا أنا يا زوجة عمي وأبو جهاد زوج ابنتك

الكبرى، فقالت لأني أعرف كم تحب عمك أبا أحمد وأنت من لحمنا ودمنا وأملاك عمك أمانة برقبتك، هو كتب لي كل شيء باسمي. لكني خائفة ولا أعرف لماذا؟ فاحتفظ بهذه الأوراق معك.

أحسست بالخيانة لا أعرف لماذا وكنت أتهرب من النظر إلى عيني خدوج التي لم تهتم بمجيئي بل حاولت التهرب من أن نجتمع في غرفة واحدة أو في مكان منفرد، وقالت لي سأبقى لبعض الوقت في القرية، المدارس مغلقة بسبب الاشتباكات وأنا سعيدة هنا أريد البقاء قليلاً.

راحت تساعد أمها على جمع العشاء والتنظيف وكأني لست موجوداً، وهذا أعطاني استراحة عاطفية لأشعر بعمق حبي لعفاف التي لم تبارح مخيلتي وشتان بينها وبين خدوج في الحركة والكلام والنظرات ولكل منهما وجودها في حياتي.

كانت السيارة معي، والغريب أن خدوج لم تهتم بأمرها، وكأني ما اشتريت سيارة ولا تقف في الخارج، ولم تبارك حتى لي. لكن زوجة عمي باركت لي وقالت: سأدشنها لك بزيارة أختي في قريتها «الكويخات». سررت بالابتعاد قليلاً عن خدوج التي تتهرب مني، ولا أعرف لماذا أحسست بأبي عبدالغفور وكرهت نفسي جداً. أحسست بحاجة إلى شرب الأطنان من الخمر الليلة بعد زيارة «الكويخات» أيضاً لإحضار الجبن والعسل الكويخاتي. قلت لزوجة عمي: سأرحل الليلة إلى طرابلس مادامت خدوج تريد البقاء عندك. تركت بضع ليرات

معها مصروف الأسبوع الذي تود البقاء فيه في بيت أهلها واتجهت نحو طرابلس.

يبدو أن النساء يصعب فهمهن بالكامل، ولا أدري إن كنت أحاول الهروب منهن إليهن. انطلقت في سيارتي نحو طرابلس لأشرب أكبر قدر ممكن من الخمر ولكن لا أعرف أين؟ ولا كيف؟ ولا متى؟ كانت الحواجز السورية تملأ الطريق والتفتيش في كل مرة أقف فيها لا ينتهي قبل ساعة فلم أصل إلى طرابلس إلا والفجر يشقشق، ولكن دوي الرصاص المتقطع كان أشبه بالرعد الخفيف، لذلك لم أستطع المرور من بعل الدراويش لأطمئن إلى عفاف، لأن الحواجز على الطرقات كانت قد حولت السير للمرور من جبل تربل بسبب أوضاع طرابلس السيئة، بحيث كان لا بد من إكمال الطريق نحو إهدن للبقاء هناك الليلة لأستمتع بشرب الخمر بحرية دون رؤية أحد.

لم أفهم كل هذه المعارك في طرابلس، وهذا المستوى من التهجير والترحيل لأبناء التبانة وجبل محسن؛ فالأوضاع باتت في حال زرية والسرقات انتشرت وسيطر الخوف والذعر من تجدد المعارك على أهالي طرابلس عموماً ولم يكن الوضع في بيروت أحسن حالاً. فقدنا التوازن الداخلي وبات الرعب في النفوس أشد وطأة. جل تفكيري في هذه المرحلة انصب على صنع بيوت المسدسات إلى جانب صناعة الأحذية على الرغم من أن تصدير البضاعة التي كنت أجهزها إلى بيروت توقف بسبب الحرب الدائرة هناك بين ما يسمى بيروت الغربية

وبيروت الشرقية والألم والدمار اللذين أصابا بيروت جميلتي التي عرفتها وحضنتني وأزاحت عني الكثير من الهموم. انتظرت هدوء القتال بين جبل محسن والتبانة والخروقات الأمنية غير المحسوبة ومررت بسيارتي قرب بيت عفاف لأقف قرب بيت علي عيد من الجهة الأمامية، كي تراني بعد أن أطلقت زمور سيارتي الفيات، فأطلت من نافذة بيتها المزخرف بالرصاص، وكأنها داخل جبهة قتالية لا أعرف كيف تبقى بعدها من الأحياء.

وصلت قبلها إلى سكة القطار المهجورة، وكأنه شيء لا يخص طرابلس، قطعة منسية في زمن ما، وأنا كذلك إنسان ولد في الزمن الخطأ والمكان الخطأ. استوقفني شغفها هذه المرة وخوفها أن لا نلتقي، واحتضانها لي وقبلتها التي تؤكد حبها المجنون العاقل. وهذه كانت هي الأهم بالنسبة إلي، فهي لأول مرة تقبلني بشغف قبلة كهذه من دون خجل، فضحكت ممازحاً وقلت: هل تعشقين رجلاً ستينياً أيتها العشرينية الفاتنة؟. فلكمتني على وجهي لكمة لم أتركها تصيبني، لأني أمسكت يدها وقبلتها. ركبنا في السيارة وتوجهنا إلى الشاليه في القلمون الذي اشتريته لنكون معاً فترة طويلة، وقد فوجئت عفاف بهذا لكنها طلبت مني أن نلتقي فقط يومي السبت والأحد من كل أسبوع في الشاليه ولا أدخل الحي أمام الجيران لأبقى بمأمن من العيون التي بدأت تسأل من أكون. واستمرت اللقاءات بيننا سنتين وأحياناً نلتقي طوال أيام الأسبوع عندما تبقى خدوج في عكار أشهراً بسبب فقدان الماء وتجدد الصراعات.

هذا المكان الصغير والدافئ يعشش في ذاكرتي، لأنه جمعني بها مراراً وتكراراً ولم أفهم لماذا كانت ترفض الزواج بي كلما جددت طلبي لذلك. كانت تقول هكذا سنبقى سعيدين أكثر لا مشاكل مع عائلتك، ولا مشاكل مع أقربائي، وعندما يموت حبنا نفترق من دون مشاكل أو صراعات كالتي تحدث في شوارع مدينة طرابلس، فقلت لها متسائلاً: تقصدين بعل محسن والقبة أو التبانة؟ فكان ردّها: لا فرق يا رؤوف لا يهمني كل ذلك.

حين تشتعل الذكريات في رأسي وتمتد إلى روحي أشعر أنني أموت آلاف المرات قبل أن أقر وأعترف أنها ماتت وتركتني في حزن لا يغسله إلا الموت. يومذاك كان لقائي الأخير لها، توجهت هي إلى عملها في معمل الثلج في الزاهرية بعد أن تركت عملها القديم في معمل الخياطة في جبل محسن، في حين توجهت أنا إلى محل الأحذية في سوق حراج قبل بركة الملاحة الأثرية التي كانت رغم الحرب في طرابلس تثلج صدورنا بمائها البارد الصافي والرقراق. وازدهرت أعمالي بعد أن اشتهرت آنذاك بصناعة بيوت المسدسات الجلدية خصوصاً بعد أن غمرت طرابلس الوفود الفلسطينية من مقاتلي أبي عمار وقوات الردع السورية. كنت قد عدت بكم إلى القبة قرب ثكنة بهجت غانم، وبقيت عمتي نورا في حارة التنك كملكة لا تترك قصرها إلا بالموت.

تضمحل أغلب الأحداث من ذاكرتي إلا أن المؤلمة منها جداً لا

ترحل بل تبقى قيد الذاكرة الملعونة. قررت بيع البيت في القبة بعد أن اقتحموا ثكنة بهجت غانم وسرقوا ما فيها وباتت الحارة كالأشلاء لا مياه ولا كهرباء ولا حتى حياة كما ينبغي، لكن خدوج رفضت مغادرة الحارة بحجة أن أختها وعمتها ليستا أفضل منها، وطرابلس كلها غير آمنة وليس حارة البقار وبعل محسن والتبانة فقط. فتركتها كما تحب وترضى، خصوصاً أنني كنت أتجنب المعارك معها، وهي التي كانت تحاول استفزازي لترحل إلى القرية وتبقى في بيت أمها أسابيع. كانت عفاف فقط سكني المحب للسلام، وهي الحضن الدافئ الذي أرتوي منه لأكمل أيامي في هذه الحياة المعجونة بالخبث والخداع، وكأنها كالسراب كلما حاولت أن ألتقطها تهرب من بين يدي.

لم تهتم خدوج إلا بالمال فكانت تشتري ما تريد بعد أن أترك بين يديها ما هو متوافر من المال كي لا تسألني أين كنت؟ ومع من؟ كانت تدرك أني أشرب الخمر، لكن يا هدى لم أشربه يوماً في البيت بينكم كي لا أهذي ولأحافظ على وقاري. كنت أعرف أني بهذا سأجعلكم تحتقرونني، لكنه كان يزيل همومي ويجعل للحزن طعمه المختلف فاقترب من الإحساس بالحزن لفقداني أمي منذ الولادة بعد نشوة خمر تضفي على نفسي متعة استخراج الحزن في لحظة تجمعني مع امرأة عشقتها حتى الموت. وعفاف لم تمانع شرب الخمر معي لكن دون ثمالة تاركة بصمات شفتيها على الكأس كما كانت تفعل عشيقة عبداللطيف التي هجرها وسافر، ولا أعرف كيف كانت تضع الحدود

لذلك فنمضي ليلة لا تنسى. حاولت مراراً أن أجعلها تترك عملها وتجلس في البيت ووعدتها بأن أمنحها المال كزوجتي تماماً لأنها كانت ترفض الزواج بي خوفاً من فقدان الحب، كانت تقول لي إن الزواج مقبرة الحب وهي لا تريد خسارة كل الحب الذي نعيشه، ولم أهتم لأننا كنا كمتزوجين نلتقي بعد لهفة واشتياق وهي تجد الوقت المناسب لنبقى معاً ليلة أو ليلتين وأحياناً أسبوعاً وأكثر.

توقفت عن إعطاء عيوشا المال بعد أن كبر إخوتي، فغضبت وهددت برفع دعوى في المحكمة ولم أهتم لأن إخوتي كبروا ومحمود زادت حالته سوءاً وكان لا بد من إدخاله إلى المصح كي يشفى من مرضه النفسي بعد إصابته بالصرع، وبعد أن أغلق أبو عشير الفرن بسبب المشاكل الكثيرة التي كانت تقع في حارة التنك. أدخلته إلى المصح أنا وأخي أحمد الحنون صاحب القلب الكبير، وبكى أحمد يومئذ بعد نوبة صرع أصابت محمود ونحن في الطريق. لكن الحمدلله اطمأن إليه أحمد هناك الذي كان قد فتح محلاً له لبيع الألبسة المستعملة في الزاهرية بعيداً قليلاً عن نقاط الاشتباكات. إذ لم تعد مهنة تصليح الراديوهات تكفي، لهذا لجأ إلى بيع الثياب المستعملة.

لم يسألني أحمد عن علاقتي بعفاف بعد أن علم بشرائي لشاليه في منطقة القلمون وطلبت منه أن يبقى ذلك سراً ولا يخبر زوجته لأنها ستخبر خدوج، وقد يتسبب هذا بانفصالي عن ابنة عمي أبي أحمد وأنا لا أرغب في ذلك، فهو ربما سمع عنها من أخي مصطفى لأنها زارتني

في محل الأحذية مراراً وأهدت إليّ هذه السلسلة على صدري، وهي ترمز إلى القوة؛ قبضة يد واحدة تتوسطها دمغة ما، لكنه ربما خاف مواجهتي، وهو يعلم أن حياتي مع خدوج كزوجة هي أم أولادي وابنة عمي ولا أتنازل عنها أبداً. لا أدري لماذا أحسست تلك اللحظة بالأبوة تجاه أخي أحمد، كأنه أبي وليس عبدالغفور الذي مات، وهو يلهث من مضاجعة أنهت حياته. حتى هذه الحادثة كانت تبعث السعادة في نفس عيوشا التي تفتخر بين النساء أن زوجها مات وهو يضاجعها ولا أدري كيف تفتخر النساء بهذا؟.

عبثية هي الحياة وموجع هو القدر تركت ليدي براعتهما في صنع بيوت المسدسات، وكنت كلما شعرت بالمال يتدفق أحسست أنني بحاجة للذهاب إلى ميدان سباق الخيل لأراهن على فرس أصيلة وأكسب منها ما يرضيني وإن خسرت لا يهم لأني أكون قد راهنت على فرس لم تستطع كسب رهاني، وبهذا أكون قد فعلت ما رأيته من الصواب والحكمة.

لم تجرؤ عفاف على الاعتراض على قبول أن نبقى معاً عندما أعطيتها نسخة ثانية من مفاتيح الشاليه الخاص بنا، ومنحتها القليل من المال لتشتري له ما تريد، وفوجئت ببساطتها في ترتيبه والاهتمام بجماله الشبيه بالبيوت القروية، لكن على طراز عربي شرقي مريح للنفس، كانت تسعى لتثير ضحكاتي، وتنتشل من روحي كل حزن قد عشش فيها، وتهتم بشراء كل ما أبغي من فاكهة وشموع تشعلها يوم السبت عندما نلتقي، ولو قارنت بينها وبين خدوج سأجد أن خدوج

أنانية كزوجة أبي عيوشا، وعفاف ليست من صنف النساء، إنها ملاك قصوا له أجنحته فبقي على الأرض ولم يطر إلى السموات.

كانت خدوج قد فقدت أي اهتمام بي وعندما أحاول المطالبة بذلك تتذرع بالأولاد وأني أناني لا أهتم إلا بنفسي كما كل الرجال لا يهمهم إلا تحقيق رغباتهم، كأنّ المرأة دمية بين أصابعهم، فأسكت وأجلس قليلاً في البيت ألاعب الأولاد ونشاغب معاً، وهي ترمقنا بغضب لتسألني بعدها أين هيبتك ووقارك بعد كل هذا في نفس أولادك، فأتركها وأذهب إلى مقهى أبي مراد الذي لايزال كما عهدته منذ صغري عامراً بروح الرجال «النخوجية». صدمت ذات مرة عندما ركض أبونا نحو امرأة سقطت على الأرض فاقدة وعيها، فأسرع في تغطية رأسها محاولاً مساعدتها لتستفيق بعد أن تحلق حولها الرجال في المقهى، فطلب من أصغرهم سناً مرافقتها إلى منزلها كي لا تصاب بدوخة مرة أخرى وحدها. ومشى هو خلفها أيضاً، مردداً الله محبة؛ استغفروا لذنوبكم إنه رحيم.

كانت الحاجة نورا في ذلك الوقت تزداد إعجاباً بي وبمكانتي الاجتماعية التي بدأت تستحوذ على رضاها، وهذا قلب اهتمامها بي بل وتفضيلي على خدوج التي غالباً ما تعترض على معاملتها السيئة لي، وتتابع باهتمام تغيراتي، وكنت أخاف من هذا لأني أدرك محبة الجيران لها، فربما رآني أحدهم مع عفاف فيخبرها، وكنت أحرص على اللقاء بها في شاليه القلمون ونخرج معاً من هناك إلى جبيل فجونية ونقضي أجمل الأوقات معاً. كنا نتحرر من أنفسنا في لحظات نشوة الحب

الذي يغمرنا ولا أدري هل الزواج هو الذي يجعلنا نختلف فننحرف أو ننفصل؟ وهل نخاف التوحد عند اللجوء إلى الوضوح والظهور إلى العلن. يبدو أن أكثر الاتفاقات السرية الناجحة هي تلك التي تبقى طي الكتمان في حكايا التاريخ التي لا نسمع عنها إلا بعد موت أصحابها.

مرت سنوات على قصتنا. كنت لا أكبر والزمن توقف؛ وحدها المعارك التي تبدأ وتنتهي بجرحى وقتلى تخيفني من فقدان عفاف. لم أشعر أننا لسنا متزوجين. بل هي زوجتي أكثر من خدوج التي عشت معها سنين عديدة قبل عفاف، فانتمائي إلى عفاف ليس انتماء الذكر إنما انتماء الإنسان إلى الإنسان واحترام رغباته والاهتمام بشؤونه دون تدخل بقراراته أو فرض الحرب أو السلام، إنما الحفاظ على ذلك الشعور المقدس كأمنا حواء وأبينا آدم.

فوجئت أنها عازفة كمان، تجيد اللعب على وتره كما تجيد العزف على وتر روحي الذي أصبحت أنغامه لا تولد إلا على أصابعها وأنفاسها، فاشتريت لها الكمان الذي مازال هنا في زوايا هذا المحراب الحزين. موسيقاها كانت تخفف من انفعالاتي وتجعلني أكثر هدوءاً لأقبل عليها بشغف الرجل العاشق لوجود امرأة لا يمكن الاستغناء عنها أبداً.

إلا أن آخر لقائي بها كان قبل يوم من حرب أبي عمار المشؤومة. يومذاك لا أدري لماذا جفلت من كلامها الذي أرعبني، وهي تقول لي: لا تحزن يا رؤوف إن مت أو اختفيت فجأة من حياتك. وضعت

أصابعي على فمها وكدت أفقد صوابي من كلامها هذا. لكنني في غمرة أشواقي لم أفكر في عمق ما قالت، ولا لماذا قبل حرب أبي عمار بيوم، أهي حاسة المرأة السادسة؟ كل ما أعرفه أن اسمها عفاف الياس، من طرطوس جاءت إلى طرابلس بعد طلاقها لتبقى في جبل محسن مع أمها التي أخدتها إلى سوريا أخيراً لتعالج ولغسل الكلى لأن الطبابة في سوريا غير مكلفة كما في لبنان.

حرب أبي عمار تلك القشة التي قصمت ظهر البعير. كنت يومذاك أجهز نفسي للانطلاق إلى عملي، ومعي أخي مصطفى الذي أردت له معرفة كل أسرار المهنة كابن لي كنت أحبه ويحبني، وقد اعتاد العمل معي بشكل مستمر ولم أبخل عليه البتة.

لقد بدأ الرصاص بقوة كما أذكر، وفجأة اندلع من كل الاتجاهات، وانحصرنا في السوق عدة ساعات لم نستطع المغادرة، والغليان في جسدي كإعصار سيجتاح الأخضر واليابس. حاولت الخروج من محلي، ركبت السيارة واتجهت تحت دوي الرصاص إلى الزاهرية حيث بيت أخي أحمد، وجلست معه أستمع إلى الأخبار عبر الراديو الصغير، فالكهرباء انقطعت وماتت الحركة في الشوارع. لكني لم أتوقع أن المستهدف هو الفصائل الفلسطينية في طرابلس. وهذا ينذر بالأعظم لأن المعركة ستكون حاسمة، دب الذعر بي واشتد الرعب والخوف على عفاف وعلى عائلتي.

يا هدى كنتم في البيت في حارة البقار وكانت عفاف في جبل

محسن، وثلاثية القبة جبل محسن والتبانة كلها تندلع منها النيران والدخان. بدأت الإشاعات تتوالى بعد أن تركت بيت أخي أحمد، وتوجهت تحت النيران إلى ثكنة بهجت غانم حيث تسللت من خلف حارة التنك. كانت عمتي قد رحلت من بنايتها تاركة أم جورجيت وحدها، فسألتها هل رأيت خدوج معها؟ قالت: لا القناص في الحارة على ظهر بناية جلول، يمنع أي أحد من الدخول إليها. منعوني من دخول الحارة بعد أن تركت أم جورجيت وأخذوني إلى الثكنة بانتظار الهدنة كي يخرج الأهالي من الحارة بعد وصول الأخبار عن اشتداد الحسم في هذه المعركة التي نجهل أسباب اندلاعها .

رأيت من بعيد الدخان يتصاعد من البيت، فأحسست أن الموت أصابكم، وأني فقدت مرة أخرى عائلتي. وجلست على الرصيف داخل ثكنة بهجت غانم أبكي عائلتي. دخل رفيق أخي طه ببذلته العسكرية محاولاً طمأنتي أنهم من الممكن أن يكونوا في الملجأ، فهدأت قليلاً بانتظار ما ستثمر المحادثات مع الميليشيات المتصارعة من هدنة في خروج الأهالي من الحارة. لا أسامح نفسي كيف نسيت عفاف في كل هذا الخوف والرعب، لأني فكرت فقط في خروج الأولاد، وأحسست أن الموت بعيد جداً عن عفاف ولا أدري لماذا؟

بعد ساعات طويلة توقفت النيران. إلا أن الدخان كان يتصاعد من حارة البقار حيث تحترق بعض البيوت ورأيتك من بعيد يا هدى تحملين الدمية التي تعشقينها بيد ورفيق أخي طه يمسك يدك الثانية

وأمك وأخواتك معكما. يومذاك أحسست بنعمة الله الكبيرة الذي حماكم. لم نتكلم، بكينا وخدوج ترتجف، ركبنا في السيارة محاولاً الخروج بكم عبر طريق طويلة من الجبال نحو طرق فرعية كثيرة للوصول إلى العبدة ومن ثم إلى القرية في عكار.

عند وصولي لم أدخل بيت عمي أبي أحمد الذي كان يضج ببناته الخمس وأولادهن، الكل هرب من طرابلس التي تشتعل، تركت لدخاني نفث الغضب الذي اعتراني من خوفي على عفاف الذي اشتد بعد أن وصلت، لو كانت زوجتي لكنت أحضرتها إلى هنا. ولم تهدأ المعركة إلا بعد أيام. نزلت لأتفقد عفاف من شدة خوفي عليها، فصدمت بمشهد الخراب والحرائق التي اندلعت في البيوت، كان بيتنا قد احترق بالكامل، فقد رأيته من بعيد، ولكن أكملت نحو جبل محسن رغم أنه كان من الممكن أن تكون في القلمون ولم يخطر ببالي من شدة الصدمة الكبرى لما حدث إلا أن بيت عفاف كان قد احترق أيضاً بالكامل، وقفت والصدمة جعلتني أتسمر أمام بيتها ولعنت الحروب وأسبابها وتفاهة المعارك التي تقضي على كل شيء وتحوله إلى رماد حتى العلاقات الإنسانية، ولعنت نفسي لأني تركتها في هذه المعركة التي لم يسلم منها لا حجر ولا بشر. حاولت الاقتراب أكثر لكنهم منعوني من الاقتراب تحت قوة السلاح. فبكيت كطفل صغير ولم أستطع القول إنني أريد الاطمئنان إلى من تسكن هنا خوفاً عليها. كنت أظن أنها ماتت بعد أن تمزق جسدها أشلاء ولم أستطع السؤال عنها إلا بعد أسابيع من عودة الحياة إلى المكان. سألت عنها كثيراً ولم أستطع

الوصول إليها، حتى البيت الذي كانت تطل منه بوجهها مبتسمة لي. قال لي أحد الجيران إن صاحبة البيت امرأة هاجرت من لبنان إلى طرطوس وهي من حارة السيدة سابقاً هجرتها أيضاً بعد الاشتباكات التي جعلت بيتها كالغربال، حاولت جداً البحث عنها. بكيتها بيني وبين نفسي وما زلت أبكيها. ولكن سألته: كانت سيدة ثلاثينية تسكنه قبل حرب أبي عمار، فأكد لي أنه مهجور منذ سنوات بعد موت صاحبته بمرض عضال منذ مدة طويلة. فجن جنوني وكأن جنية دخلت وخرجت من حياتي ولا أعرف من هي؟ أو من تكون؟

سألت عنها في معمل الخياطة في الجبل الذي كانت تعمل فيه عندما عرفتها وكانوا يحاولون إعادة تشغيله فقال لي صاحب المعمل: ما من امرأة كانت تشتغل هنا بهذا الاسم. وصفتها له لكنه أيضاً أنكر أنه يعرفها. وأيضاً معمل الثلج في الزاهرية أنكر أنها تعمل فيه. ظننت أنه من الممكن أن تلجأ إلى الشاليه في القلمون لكن أيضاً لم تظهر.

هذا يا هدى جعلني أضعف من العصفور الذي في القفص أمامك. لأن عفاف كانت الحب الحقيقي في حياتي، ولم أستطع بعدها أن أعيش بسلام مع خدوج. لأن البيت احترق بكامله وكل شيء فيه لم يسلم والعمل توقف بسبب المعارك الطويلة التي بقيت بين جبل محسن والتبانة، وكان عليّ إيجاد بيت وإعادة تأسيسه من جديد، وهذا مكلف وأنا أصبحت في الخمسين لا حول لي ولا قوة، لأنني بعد اختفاء عفاف أحسست بالعجز وكأني كبرت مئة سنة، فلا طعم للحياة دونها.

بدأت العمل بصمت، لكني لم أجمع ثمن منزل جديد فقررت بيع دكاني القديم في شارع ستاركو في التبانة، لكن من يشتري الدكان القديم في هذا المكان الذي لا يخلو من المعارك، لم يشتره أحد وبقيت خدوج في بيت أمها معكم، وحاولت كثيراً إيجاد بيت بثمن زهيد فلم أوفق وكبر الأولاد ولم أشعر بالزمن إذ مرّ بسرعة وكأني كنت أعيش مع عفاف فقط، رأيت كل شيء أمامي وبسرعة يكبر، رأيت إخوتك الصبيان وقد كبروا ولم أستطع مرافقتهم كما ينبغي، كنتِ أنت يا هدى رفيقتي الوحيدة حتى الآن.

استطعت تأمين البيت من صديق لي هاجر إلى أستراليا، وخاف أن يسكن في بيته بعض المسلحين عنوة، فطلب مني السكن فيه حتى أجد البيت المناسب، وكأن هذه الهدية هبطت من السماء دون حساب، ولم أصدق ما حدث، سارعت في أخذ المفتاح منه وذهبت إليه لأراه إن كان مناسباً للسكن. لم أستطع قبول فكرة أن تدخل خدوج إلى الشاليه المكان الوحيد الذي جمعني بعفاف قطعة روحي التي ما زلت أشعر بوجودها في الحياة.

في شارع المئتين وبعيد عن خطوط المعارك التي باتت معروفة في طرابلس. الشارع هادىء وقريب من السوق ومن مدارسكم، وجيرانه على ما يبدو على أدب وهدوء ولا صوت لهم، بقيت في البيت أسابيع قبل أن أتجه إلى عكار لأحضر العائلة، وبدأت حياتي من الصفر محاولاً أن أستمد القوة منكم للبقاء على الأمل في الحياة. لكن مشاكل

الحياة لا تنتهي وزادت الأوضاع الاقتصادية سوءًا بعد حرب أبي عمار، فقد توقف بيع بيوت المسدسات وهدأت الأوضاع نسبياً، فعدت إلى صنع الأحذية، ولم أشعر بطعم الحياة بعدها إلا أنني كنت أعمل وأنام. كنت أهرب إلى مقهى أبو مراد الذي قاوم الحرب كخالتك أم جهاد حتى الفجر، فترتفع صرخات خدوج لتصيبني بالتوتر وهي تعيد الكلام نفسه كل ليلة.

أصبحت أشرب قهوتي معها وهي الغائبة عني بعد أن بحثت عنها بكل قوة وكأني رجل تحري خاص وما من نتيجة، أنام في حضنها من شدة اشتياقي إليها وهي غير موجودة، وأشم رائحتها من ذاكرتي الحزينة وأكمل حياتي عندما أجلس في الشاليه الذي كان يجمعنا سراً، واحتفظت به رغم الصعوبات الكثيرة التي فرضت عليّ بيعه ولم أفعل، وأشرب وأثمل وأبكي معها لأرتب نفسي بعدها وأعود من حيث أتيت دونها لأكمل مسيرتي معكم كرب عائلة لا ينتمي إلى عائلته مثل عبدالغفور تماماً، وهذا كان يصيبني بالجنون وبحالة هيستيرية خفية تجعلني أتورط في المهدئات التي كنت ألجأ إليها، والتي بدأت تجعلني أدمنها. تمنيت إزالة جبل محسن والتبانة والقبة ورفع الدمار والخراب. كرهت المعارك التي يقتل فيها الإنسان أخاه الإنسان. كنت أجلس وحيداً لأبكي حياتي التي تشبه المعارك في طرابلس التي أدت إلى إنهاء حياة من أحب والقضاء على بيتي وعلى الحارة التي تحمل ذكرياتي مع عفاف.

من هنا يا هدى تشكلت انعطافة كبرى في حياتي هي رصاصة أمسكتها بين أصابعي حتى لا تقتلني، كنت أقضي الليل بين جدران دكاني في سوق الكندرجية. كنت ألتصق بالجلود ورائحتها حتى بات الرسم عليها، وتقطيع التصاميم عنها بالسكين الحادة التي لطالما اشتهيت أن أرتاح منها بعد أن بدأت أصابعي ترتجف والعمر أخذ مني عفاف، وأجمل سنيّ الحياة، كرهت الحروب والاقتتال والصراخ والصراع الذي ينشأ بين الأب وابنه وبين الأم وابنتها، ولعنت كل المعارك التي تبدأ وتأخذ من نحب عنوة منا، حتى جبل محسن والتبانة والقبة ما عدت أحب رؤيتها جميعاً، وكنت أحاول في طريقي الذي أسلكه إن اضطررت للصعود إلى القبة أن يكون من باب الرمل طلعة الخناق، فعمتي نورا رحلت تاركة بنايتها كهيكل عظمي أكلته القذائف، ولم تأكله السنون التي أكلت جسدي، وما زالت إلى الآن حارة البقار هيكل الحرب التي لم تمت بل تركتها منخورة العظم دون دفن في قبر تستحقه.

لم تتوقف خدوج عن الإنجاب وكل محاولاتي باءت بالفشل

ورغبتها في إنجاب الصبيان تفوق رغبتها في محبة البنات، وأنا لم أشعر بالصبيان ولم أستطع بوجود خدوج فرض أبوتي أو الإحساس بها. لأن الانتماء هو ذاك الجزء الذي يكبر في خلايا القلب لتتسلق الروح الصعوبات، وندرك أن للبعض في حيواتنا حياة منفردة نعم حيواتنا يا هدى. لأني أشعر أني عشت حيوات متفرقة والحياة الوحيدة هي تلك التي عشقت فيها عفاف، وليتني لم أرضخ لها وتزوجتها. لكن الخوف من الناس أكبر من الخوف من الله، وهذا يصيب الناس بالعجز، وأنا مؤمن أن الله سيغفر لي ولها وسيجمعنا معاً مرة أخرى في حياة نجهل برزخها الذي ينقلنا عبر باص ضوئي من صنع أرواحنا التي يقبضها ملك الموت وهي تحلم. عندما نشعر بالحب تصبح الحياة كسهل أخضر فرشته الطبيعة بالزهور والرياحين والخصب فيه يكفي الكون ليعيش من فيه بسلام. لكن الحياة دون حب كصحراء تلتهب وتبتلع كل من يدب عليها لتثير الرعب في نفوس من يعيش فيها، فيستحيل الحراك أو الإقامة فيها، هذا باختصار ما أنا عليه الآن يا هدى.

- يا للهول يا أبي! لماذا تحكي لي كل هذا الآن. هل يعقل أن الوجع قد نال منك كل هذا وأصابك باليأس؟ يا أبي مازالت الحياة جميلة وفي كنفها أنا وإخوتي وأنت وأمي معاً.
- لا أشعر بذلك لأن خدوج تراني كمغارة علي بابا تقتطع منها من الذهب ما يكفيها وتعود إليها خالية الوفاض لتأخذ منها وترحل، وبما يكفي لتعيش في بحبوحة وتدلل صبيانها،

وأنا مرمي هنا بين الجلود والأحذية والقوالب الخشبية التي أضعها في الحذاء، ليشتد ويأخذ شكلها كأني في الحياة ما كنت إلا كهذا القالب الخشبي الشديد القساوة، وعفاف هي الجلد الجميل الذي أعطيته رونقاً وبهجة قبل أن يصبح في حذاء يشتريه الزبون ولا أعرف إلى أين يرحل.

- وأنا يا أبي هدهد حبيبتك أحتاج إليك جداً وأنت قربي دائماً لماذا يا أبي هذا اليأس؟ لماذا تروي هذا الآن؟ بعد كل هذه السنين تجعلني أعيش قصة حبك مع عفاف؟.
- يسرق الخبث من الإنسان عمره كله، ويمنح الخير للإنسان عمراً آخر. وأنا بعد إصابتي بالفالج لا أذكر إلا صوت المعارك في حياتي. ألا يكفي هذا لأستسلم ولا أبخل على نفسي بالبوح لابنتي بأحداث حياة نازعتها فقتلتني؟

من حرب الرغيف الذي تلذذ به أخي محمود المرمي في غرفة داخل مستشفى المجانين، إلى حرب المحروقات وبلبلة الحاجة إلى المياه التي باتت شحيحة طوال سنوات فقدناها هي والكهرباء، وكل ذلك لم أشعر بقوته إلا بعد أن فقدت عفاف التي كانت لي درعاً يحمي قلبي من رصاصة الذاكرة التي تقتلني الآن آلاف المرات، فلا أموت ولا أحيا وأنا لا حول لي ولا قوة. دُمّرت أسواق بيروت ومعها أسواق التبانة، وانتزعت من الأحذية قوالبها لأحشوها للمسلحين تحت تهديد السلاح بمواد لا أعرف مما تصنع، ولماذا هي، وكنت أكره حياة

الضعف تلك عندما يتوجه مسلح ما إليك واضعاً مسدسه في رأسك، لتقوم بما يرغب فيه دون سؤاله ويرحل تاركاً لك تأنيب الضمير.

- ستشفى يا أبي وسنكون معاً مجدداً في رحلة مشي دون عصا، لأني بت أسمع أزيز الحجارة من كل عصا يمسكها البعض ولا أعرف يا أبي إن كنت ظالماً أو مظلوماً، ولكن أنت أبي وأنا أنتمي إليك وخدوج أمي ولا أحب أن أسمع عن عفاف التي منحتك الحب الذي لم تعش تفاصيله مع أمي التي أنجبت لك الأبناء.
- الأبناء ليسوا من ننجبهم إلى الحياة يا هدى، الأبناء هم من يمسكون أيادي الآخرين ليكونوا كالعصا التي أمسكت بها الحاجة نورا ولم تتركها حتى الموت. الأبناء، أين هم إخوتك الصبيان هاجروا أخبريني أين هم الآن؟ أنت حبيبة قلبي، لكن يوماً ما ستتزوجين مثل أختي فاطمة وأبقى وحيداً منفياً، وخدوج ما زالت كما هي لا تشبع من تنظيف البيت أو الاهتمام بالأحفاد وأنا آخر همها.

مسحت دمعتي وتركت أبي على كرسي متحرك في الشاليه القابع على شاطىء البحر في محلة القلمون محاولة إبعاده عن كل ما يكرهه وأنا أسترجع كل مكنون كلماته عن حكايا حياته بعيداً عن أمي التي لم أسمع تفاصيل حكاية عمرها، وهي التي تحاول الصمت عن

تفاصيل أحاول معرفتها عن حياتها، ولا أعرف كيف سأنتزع منها ما بقي مجهولاً بالنسبة إلي وكأن الحياة هي معركة لا نعرف أطرافها ولا أسباب اندلاعها، ولا لماذا هدأت أو إن تم إصلاح الخراب أو الإبقاء على الأشياء كما هي عليه للاستعداد لجولة أخرى؟

الفصل الثالث

بدأت الحركة تدب في السويقة رويداً رويداً، وغاب عنها صوت القهوجي عبدالغفور الذي أسمع صدى صوته، والحمام في رقصته الصباحية فوق البيوت القديمة والمكومة، كأنها صناديق الخضرة في سوق الخضار. أما جامع البرطاسي الذي يجمع بين كفيه القديم والجديد، فما بين جرس الكنيسة المعلق بين البيوت المرسومة في علو أمام من يقف عند جامع البرطاسي، وبين مئذنته نسيج سماء واحدة تجمع البشر الذين يبحثون إما عن المعارك التي يفتقدونها وإما عن السلام المفقود.

تجمهر الناس حول البسطات المتحركة أمام المحال على جسر نهر أبي علي، منذ ربع ساعة، وبائع منهم يغني أغنيته الشعبية في الإعلان عن أوكازيون الفقير «القطعة بألف تعا تفرج تعا شوف من عنا بتلبس العيلة كلها»، تكدست الرؤوس فوق البسطة كأنها تلك البيوت التي تعج بالغموض نراها ولا نفهم ما مر عليها من أحداث أو من أزمنة تلغي بعضها بعضاً.

وحده نهر أبي علي يجري كما ينبغي له غير مهتم بما تفعله به

أيدي البشر. ربما يخافون طوفانه مرة أخرى، فيكتسح البيوت غير آبه لشيخ أو طفل أو حتى حجر، كما فعل منذ سنين قبل أن يبنوا له السور ويضعوه في سجن من الباطون المسلح الذي جعله كمن يجري في ميدان سباق الخيل الذي تولع به أبي وأدمن الرهان فيه. مشيت على جسر نهر أبي علي لأفتش عن بيت جدي عبدالغفور، وأبحث بنظري عن مطارق الحديد التي تشير إلى مدخل الحارة التي نشأ فيها أبي بين عقبة الزاهد وطلعة الحمراوي، وطلعة المجذوب، وعقبة المفتي، حيث دار المفتي ودار الخوري. لمحت في أحد الأزقة المغلقة آثار الحرب التي شملت حتى البيوت القديمة رغم مرور الزمن القليل الذي سمح بعودة الحياة نوعاً ما إلى الأزقة والشوارع بينها.

صعدت درج حارة البرانية وسط الثياب الملونة على الحبال التي تتدلى من هنا وهناك، كأنها عصافير ملونة في أقفاص مفتوحة على مصاريعها، وصراخ الأولاد الذين يلعبون بين البيوت بمرح وسعادة ويتطايرون عند رؤية امرأة تطل لتصرخ فيهم أو تنادي أحدهم، لأكمل نحو حارة السيدة متجهة نحو حارة التنك، فحارة البقار لأتفقد الأمكنة التي ترعرع فيها أبي وولدت فيها، فكنت في فجوة زمنية أدهشتني، فمازالت هذه البقعة من مدينة طرابلس تشبه الغراب الأسود العاجز عن الطيران.

أطلت خالتي بوجهها المبتسم من باب بيتها المفتوح في حارة التنك التي ما زالت بتجاعيدها تقاوم الوجود، لتبرهن على قوة الأمكنة

في تحدياتها للزمن، وقد يفشل الإنسان في هذا إن لم تتابع الأجيال دفاعها عن الإيمان بالسلام. بيت خالتي يمسك بأطرافه حارة البقار وحارة التنك وليس فيه سوى حديقة تزرعها وتجعل منها بستانها الصغير، فما زال زوجها العجوز يقاوم الحياة كحديقتها. إذ تعتني بهما تبعاً لإيمانها بقوة الحياة التي يئس منها أبي.

قطة خالتي إيزابيل تنام على الأريكة الإسفنجية مستسلمة لأريج زهر الياسمين الذي تطوف رائحته في أرجاء البيت. ما زالت خالتي تحب القططة كعادتها مذ عرفتها. الكل هجر حارة البقار، إلا هي فقد تمسكت بجدران منزلها تمسكها بزوجها وقطتها إيزابيل. إلا أن خالتي لا يحلو لها الكلام، إلا بعد أن تضع سلتها الممتلئة بالصوف أمامها، لتبدأ بصنع «الكروشيه» وتسترسل في الكلام.

- يا خالتي لماذا لم تغادري هذه الحارة حتى الآن. ألا تخافين من تجدد الاشتباكات بين هذه العشوائيات المتراكمة وكل هذا الخراب؟
- أين الخراب يا خالتي. ما من خراب هنا، وممّ أخاف؟ لا أحد يموت إلا في يومه المحدد. منذ أكثر من خمسين سنة أنا هنا ولم أمت. مات الكثير الكثير ممن هربوا وتركوا بيوتهم وأنا بقيت رغم كل القذائف التي كانت تنهال على الحارة، بربك ما هذا الكلام؟!

- خدوج كلمتني أمس تحادثنا ساعتين، سعيدة جداً عند ابنها أبي البنات ولن تعود إلى لبنان.
- هل يرضيك هذا يا خالتي؟ لماذا لا تحاول العودة إلى لبنان لتكون قرب أبي؟ برأيك هل من الصواب أن تفعل هذا؟
- رؤوف جرحها وأتعبها جداً ولم يفكر إلا في حبيبة قلبه عفاف التي ماتت والحمدلله..
- لماذا يا خالتي تقولين هذا عن أبي؟ وهل الحب حرام؟
- ألم يكتفِ بخداعها وخداعنا ابن عبدالغفور حتى يحب ويعشق هيدا اللي كان ناقص؟
- يا خالتي هي إنسانة قبل كل شيء وهو لم يتزوجها بل أحبها واحترم أمي ولم يجرحها.
- وأمك تزوجها وهي بنت عمه وما حافظ على بنت عمه بدون ما يسبب لها التعب ووجع الرأس. حفي وراها لقبل أبي يزوجها له..

لم أستطع البقاء طويلاً في بيت خالتي الذي كاد يخنقني من كل الذكريات التي بدأت تخرج من خبايا ذاكرتي في هذا الحي الذي حمل مواجعي أيضاً. تركتها ويداها في حياكة «الكروشيه» ترجّح الخيطان التي تستفز إيزابيل القطة التي تسبب لي الحساسية، اتجهت نحو البناية التي هربت من ملجئها وأنا ذات السنوات القليلة أحمل دميتي التي وقعت مني وسمح لي ذاك الجندي بالتقاطها في آخر هروب لنا من الملجأ قبل أن يحترق البيت بأكمله في حارة البقار.

دخلت البناية الهرمة بتشققاتها رغم إصلاحات سكانها الجدد من الذين هجروا سوريا بعد الثورة العقيمة التي لم تنجب إلا الخراب والدمار، والذين يسكن معظمهم في بيوتها لتجمع الحارة مجدداً شتات شعب في أبنية كالغربال قبل أن تلتحم بسكان جدد أتوا من كل صوب وحدب مع من بقي من سكانها القدامى العجز المتمسكين بأمكنتهم حتى الرمق الأخير.

ركبت سيارتي ومررت من أمام ثكنة بهجت غانم متجهة نحو جبل محسن أحاول استكشاف أين يقع بيت عفاف، ولا أدري لماذا شعرت بالغيرة من امرأة عشقها أبي. بحثت عن أغنية أبي المفضلة «كتاب حياتي يا عين ما لقيتش زيو كتاب الفرح فيه سطرين والباقي كله عذاب» وعاودت المرور من التبانة نحو سوق الخضار لأشتري لأبي التوت الذي يحبه. وصلت إلى الشاليه وشوقي يسبقني لضم أبي إلى صدري، لأتجمد من هول ما رأيته، سلسلته مرمية بقبضة يدها على الأرض والكرسي المتحرك مقلوباً، ورقبة أبي مربوطة بحزام من جلد التمساح وهو يبتسم مرمياً على الأرض جثة باردة لا حياة فيها.

بعد رحيل أبي بأشهر قليلة عادت أمي إلى لبنان، لتبيع البيت الهيكلي في حارة البقار القبة الموجوعة في طرابلس، تلك البقعة التي كانت نقطة اهتمام تتصارع عليها قوى مختلفة، رغم أنها ليست إلا بقعة حياة إنسانية تضم فيها العديد من المذاهب والطوائف، ولطالما جاور دار المفتي دار الخوري في حارة البرانية، والكنيسة جاورت المسجد، وضمت الحارات في القبة العديد من العائلات التي هاجرت أو انتقلت أو مات بعض أفرادها. أقول هذا لأن أصدقائي في بناية سكاف الواقفة على رصيف حارة البقار، رحلوا إلى أستراليا دون عودة، فالبناية كانت قرب ثكنة بهجت غانم، وكان معظم العسكريين يشترون البيوت قرب خدمتهم العسكرية سنة ١٩٦٧ حيث كانت الحارة في أوج ازدهارها وجمالها مع التبانة بمقاهيها ودور السينما منها الدنيا والأهرام والروكسي.

تنفي أمي محاولاتها تغييب دور أبي في التربية عندما أواجهها بذلك. كانت تبرر ذلك بأنه لا يعرف كيف يهتم بشؤون نفسه فكيف يستطيع الاهتمام بشؤونه العامة وحتى الخاصة. لم تشعر أن اهتمامها

بالصبيان وبتفضيل الكبير الذي تفتخر به هو تعويض لمجد جدي الذي مات دون أن تنجب له جدتي الصبيان، مارست احتكار التربية بتفرد أتلف اهتمام أبي بأولاده. إذ لم تمنحه أمي قوة التعامل مع إخوتي الصبيان بحجة أنه ولد يتيماً، ولم يعش في كنف عائلة يتعلم منها كيفية التعامل مع أفراد الأسرة. ولا أدري لماذا كل هذا الاهتمام بالأسرة، وهي التي تركتني لأبي دون أن تشعر أنها جعلتني في اقتناع تام أن أبي مدرسة حياتية واقعية في مبادئها التي تقوم على التوافق وإعطاء كل ذي حق حقه دون التسبب بالأذى للآخرين.

حضوره ازداد في مخيلتي بعد أن اختار موته والمكان والزمان كما كان يردد دائماً عندما نتحدث في خصوصياته. لم تكن سوى لحظات كئيبة تخللها بعض الفرح الذي يشبه حارة البقار في هدنتها التي ما إن تنتهي حتى تبدأ، وغرفته تلك في بعل الدقور حيث يغط في لحظات نشوته المجنونة، ليست أكثر من هروب شبيه بهروب المسلحين عندما تصل إليهم الأوامر بوقف القتال. كانت أمي تقوم بطقوس صبحياتها بروح الحاجة سعاد الممسكة بعصاها عندما تشعر أن هيبتها بدأت تنقص. لذلك لم يكن لديها أي نوع من الرأفة لتقصير أبي في توفير مصروف العائلة، فيخرج من البيت مهزوماً من امرأة لا ترى فيه إلا الصبي الذي يعمل عند أبيها في صناعة الأحذية، والتي كانت تعطف عليه لأنه اليتيم الذي تركه والده يكبر في حضن الكوشارية، ليرعى بقراتها. أعادت أمي ترتيب البيت الكبير الذي اشتراه لها والدي قبل

وفاته في الضم والفرز دون أن يدخل إليه، بعد أن فرشته بالمزهريات الكريستال والشمعدانات الفضية واللوحات التشكيلية لأكبر فناني لبنان في العصر الحديث مثل زوهراب وميشال روحانا، لتفتخر بذلك أمام جاراتها وصاحباتها. كل هذا كان يغيظني ويجعلني أبكي أبي وأرثيه عندما يطل عليّ بطيفه حين كان يزفر عند ذكر عفاف التي تحولت في أعماق نفسي أو في اللاوعي الداخلي إلى تلك المرأة التي استفزتني لمعرفتها وما من سبيل لذلك لأنها تركته ورحلت ليكمل الحياة في حرقة كبيرة .

تحكي أمي تفاصيل معرفتها بأبي، بينما توجه كلماتها إليّ بنظرات لا أعرف تفسيرها تشبه تفسير زعماء طرابلس لحرب القبة والتبانة دون الاهتمام بإعمار هذه الحارة؛ فالدمار ربما يسبب ثروة في طياته، ليكون الإعمار ما هو إلا توزيع الحصص التي يختلف عليها الآخرون. كما اختلف إخوتي في تقسيم ثروة أبي التي لم تشعر بها أمي ولا بقيمة التعب الذي قام به ذلك اليتيم، الذي لم تر به إلا الفوضوي وغير الملتزم بالحياة الأسرية، ولا بتلك الأصابع التي حفرت السكين مكانها وهو يقص الجلد للأحذية التي يصنعها تحت القصف والرصاص للحفاظ على عائلته التي تمسك بها حتى الرمق الأخير.

بقي في رأسي معرفة من هي عفاف الياس؟ ولماذا لم يحاول أبي معرفة من تكون بعد موتها حتى النهاية، ولا أين دفنت. هل يعقل أنه استمتع بصحبتها دون معرفة تاريخها أو هويتها أم أنه خاف من نتائج

بحث قد تجعلها كالأخريات في حياته وهو وجد فيها الملجأ النفسي المريح الذي منحه الدفء والرعاية؟

كنت أريد الخروج من التفكير في هذه المرأة، وكأني أريد أن تكون من النساء المخادعات لعشق أبي لها لا أدري لماذا ، وربما لأني فكرت في مأساة أبي وإخوته من عائشة المبروكة كما قالت لها الجدة سعاد. اتجهت نحو حارة البقار لأستعيد ذكريات طفولتي حيث كانت الصخرة البيضاء كتلة ملساء نتزحلق عليها في الأعياد قرب الأراجيح الخشبية حيث فوضى الأطفال الذين يجتمعون في البلاطة قرب الوادي ونستمتع ببهجة العيد. أي طفولة تلك التي عشناها بعد الحروب التي كنا نخاف أن يموت فيها أحد أفراد عائلتنا. الغريب أننا لم نفكر في الموت أن يصيبنا، كنا أحياناً نخرج من الملجأ خلسة لنستطلع أوضاع الحارة بعيون تراقب بحذر تحرك المسلحين من جدار ذي ثقوب مفتوحة أو أقف على ظهر رياض لأسترق النظر من نافذة عند درج البناية. ينمو الخوف من الموت كلما كبرنا ونتمسك بالحياة بشكل أكبر كلما أدركنا معنى جوهرها الحقيقي.

بعد ذلك ذهبت إلى التبانة أتفقد محل أبي القديم بين البيوت التي تشبه أكواخاً مهجورة منذ مئات السنين، وفوجئت أنه ما زال بأحجاره السوداء يشبه أرض سكة القطار المهجورة لم أتخيل أن وصف أبي لدكانه الصغير بهذا الشكل كأنه كشك سجائر محروق بل متفحم تنبعث منه رائحة إسفلتية عفنة غريبة في تسربها إلى الأنف، كأن

جدرانه دهنت بالقطران. تركته وصدى خطواتي يتبعني كثعبان بحفيف زحفه على الأرض. ارتعبت حقيقة كنت أظنه كبيراً يتسع للكثير من الزبائن أو أن يكون أعيد إعماره. إلا أنه برغم إعمار بيروت وأسواقها ما زالت الأمكنة في التبانة كما هي مع تحسينات قليلة قام بها بعض من المتبرعين والمجتمعات المدنية. خرجت من بعل الدقور متجهة نحو مسجد الناصري حيث حاجز قوى الجيش اللبناني في النقطة الفاصلة بين التبانة وطلعة العمري، عند التقاء بعل الدراويش وجبل محسن وقريباً من الدرج الطويل الذي يمسك القبة بكل ذلك.

ربطت الشال على رقبتي، وكأني أستعد لصعود الجبال قررت أن أسأل عن بيت عفاف الياس حيث أشار لي قرب مستشفى الزهراء حالياً بعد المفرق الأول دخلت تلك الحارة، والقشعريرة تصيب جلدي بنرفزة أعادت إلى ذاكرتي مشهد الدماء التي كانت تسيل على هذه الطرقات في المعارك. كان العم صاحب الدكان الذي يجلس على الكرسي يبيع في دكانه بعض السكاكر للأطفال، يجلس على كرسي حديد وفي يده مضرب الذباب يخبطه هنا وهناك. رحب بي حين دخلت، لكن لم أكن من الزبائن المشترين بل فضولية تبحث عن امرأة مجهولة مضى على اختفائها ما يزيد عن العشرين سنة، أخذت كيساً من البزر وفتحته وجلست قربه وهو مندهش بي سألته..

- هل من عائلة الياس سكنت هنا في هذا المبنى يوماً؟
- مثل هذا السؤال لن ينفعك يا ابنتي.

- لماذا يا عم؟
- لأنه مات من مات وعاش من عاش منذ ثلاثين سنة حتى الآن.
- لكن ها أنت قد بقيت منذ أكثر من ستين سنة.
- أنا عمري من عمر هالحجارة الواقفة بالدكان شو خصك فيني يا بنت.
- أردت فقط معرفة بيت امرأة اسمها عفاف الياس سكنت في هذا المبني فوق دكانك يا عم.
- أنا لم أكن هنا يوم خلت هذه المنطقة من سكانها بسبب الحروب.
- أين كنت؟
- كنت في أستراليا.

يا إلهي أحسست برعشة في قلبي حين نظرت إليه لأتفحص عمره بشكل تقريبي، ربما إحساسي مخطىء. هل يعقل أن يكون عبداللطيف صديق أبي شككت في الزمن وفي لعبة القدر تلك التي بدأت تغضبني؛ فهل يبني القدر الحدث لتتشكل أدوار البشر في أمكنة نظن أنها في نهاية العالم.

- ما اسمك يا عم؟
- وما يخصك باسمي يا بنت؟
- أبداً قلت إنك كنت في أستراليا.

- وماذا في هذا كل البشر تسافر إلى أستراليا.
- لا أبداً صديق والدي سافر إلى أستراليا وأحسست أنه ربما تكون أنت ولا أعرف أهو حدس امرأة أم شك في القدر؟
- اسمي شيخ عبداللطيف.

ارتجفت دقائق وتلعثمت الكلمات في حلقي وأدهشتني قوة الإنسان على العودة إلى أمكنة تشكل أعمدة التعجب بل أحجار الشطرنج في لعبة الحياة.

- أنت شيخ عبداللطيف؟ هل أنت شيخ فعلاً؟

ضحك فاهتز كحبل غسيل رفيع ضربته قطعة غسيل وقعت عليه. كاد يغشى عليه من الضحك وأنا ربما في حالة عصبية انفعالية.

- لا أنا لست شيخاً، اعتاد البعض مناداة العجوز بالشيخ.
- سألته بسرعة وبشكل قطعي أنت صديق أبي رؤوف الشريف.

دس وجهه بوجهي حتى كاد يلتصق بي فرجعت إلى الخلف واضعة يدي على صدره.

- ما بك يا رجل؟ شو صار معك جننت.
- كيف أنت بنت رؤوف رحمه الله؟
- كيف عرفت أن أبي مات؟
- سألت عنه جاره أبو رشيد ليش في حدا ما بيعرف رؤوف بالسوق رفيق عمري.

- ما قصة عفاف يا بنت وشو خصك فيا؟
- هل تعرفها؟
- أعرف عفاف شحادة مش عفاف الياس.
- شو القصة أنتما الاثنين تعرفان عفافات على ما يبدو.
- نعم عفاف شحادة كانت تسكن هنا وجدها ترك أمها وهاجر فقامت هي بالعناية بها.
- أووف وهل هذه عشيقتك القديمة؟
- ااااااااخ عفاف امرأة ما بعدها امرأة يا ليتني ما تركتها في حياتي.
- أخبرني عنها لو سمحت
- وما الذي يؤكد لي أنك ابنة رؤوف؟

من حسن ظني أني أحمل في حقيبتي صورة لأبي وضعتها في دفتري الذي أكتب عليه ملاحظاتي اليومية، فتحت الحقيبة وأخرجت الصورة وما إن مددت الصورة نحوه حتى تغيرت ملامحه.

- نعم هذا صديقي رؤوف رحمه الله، يا بنت شو قصة عفاف مع أبوك ومن هي عفاف الياس؟
- لا أعرف يا عزيزي كل ما أعرفه أنها عشيقة أبي الذي مات وهو يتأسف على عدم زواجه بها بعد أن ماتت أو قالوا له ماتت لأنه لم يعرف أين دفنت؟
- وكيف ذلك؟

رويت له ما حدث تماماً فأصابه الذهول والشحوب وبدأ يرتجف كأن الوحي هبط عليه ولا أعرف كيف أغمي عليه فبدأت أصرخ كالمجنونة حتى اجتمع حولنا بعض الشبان فأجروا له الإسعافات وأخذوه إلى المستشفى الذي رافقته إليه في سيارة الصليب الأحمر كي أطمئن إليه بعد هبوط حاد بالضغط. كدت أموت رعباً من أن يموت ويبقى سر عفاف هذه معه.

تركته يستريح وأنا أقف بعيدة قرب النافذة في المستشفى الإسلامي في طرابلس وهو يحملق بي من بعيد دون كلام، فلم أستطع الكلام مخافة أن أزعجه. هبطت إلى الطابق الأول وأحضرت له بعض العصير من الكافيتريا لأهدأ قليلاً بعد نوبة من الأحداث التي أتلفت أعصابي.

جلست أمامه أشرب عصير التفاح بعد أن أعطيته زجاجة من عصير المانغو كما طلب، استفزتني عيناه المليئتان بالكلام إلا أنه لم يحرك شفتيه، ما أغضبني قليلاً، لكن ما من حيلة تجعله يتكلم. تركته بعد ساعة حيث أدركت أنه غير مسموح له بالخروج للبقاء تحت المراقبة بسبب هبوط الضغط ودقات القلب غير المنتظمة.

حملتني سيارة الأجرة عبر شوارع طرابلس كما طلبت ورحت أتأمل شوارع المدينة التي ترعرعت فيها، وكأني لا أعرفها وأراها أول مرة وأنا أفكر في عفاف الياس وعفاف شحادة. هل هذا مجرد تشابه أسماء لعشيقتين هما لرجلين صديقين؟ لم أستطع الهدوء في استراحة

من تفكير زاد من توتري وجعلني في حالة شطرنجية أستبدل هذه بتلك لأعيد ترتيب الأفكار والأحداث دون الوصول إلى نتيجة. وصلت إلى بيتنا القديم في محلة المئتين ودخلت البيت ورأسي يكاد ينفجر من تزاحم الأفكار التي لم تسفر عن شيء، ولكن أعدت حديث أبي لي عن متعتها في العزف على الكمان وكيف لامرأة عاملة في معمل للخياطة وآخر للثلج وهي من منطقة شعبية إلى هذه الدرجة أن تعزف على الكمان، هل يعقل هذا؟

دارت أحاديث أبي في رأسي دون توقف عن أحداث جبل محسن والتبانة، وما يلفها من غموض بعد اتفاقية الطائف وعودة الهدوء والإعمار إلى بيروت، وبقاء منطقتي الجبل والتبانة كسبحة تجيد الإصبع اللعب بحباتها بل وتجيد الوصول إلى النقطة نفسها في كل مرة لكن مما لا شك فيه أن تلك المرأة هي فاتنة للغاية لتترك أثراً في نفس أبي وربما في نفس صديقه أيضاً.

كانت الشكوك تثير بي يقين الحقيقة التي جعلتني أشعر بأنهما امرأة واحدة. لكن لا بد من معرفة حكاية عفاف شحادة من العم عبداللطيف الذي بث الرعب في نفسي مما حدث له.

لم أستطع النوم جيداً وأنا أفكر في هاتين المرأتين، وكيف لرجلين التعلق بهما إلى هذه الدرجة، لا بد أنها شخصية مدركة فن الإغواء أو أنها فعلاً أحبت أبي أو أنّ تلك تعلقت بعبداللطيف، ولست أدري لماذا رافقني هذا الحدس. ربما تكون فلسطينية المنشأ وتخاف البوح بذلك

لهذا اختفت بعد حرب أبي عمار أو ربما! لأنها ماتت فعلاً، ولكن كيف لم يجد لها أبي أثراً حتى في معمل الثلج الذي كانت تعمل فيه، أيعقل أنها خدعته ولم تكن تعمل في معمل الخياطة ولا في ذلك المعمل للثلج أيضاً؟ وضعت ورقة أمامي وأعدت كلام أبي عنها بشكل دقيق وكلامه عن عشيقة عبداللطيف، فلم أجد نقطة واحدة تلتقيان بها إلا أحمر الشفاه على كأس النبيذ والشموع، وهذا ربما محض صدفة لا يمكن الحكم من خلالها على أنها عشيقة عبداللطيف.

غفوت ورأسي على وسادة الكرسي في غرفة الاستقبال والتلفزيون يدندن أغنية فريد الأطرش «عش أنت» لأقفز بسرعة بعد أن لفت نظري أن الساعة الحادية عشرة. يا إلهي عبداللطيف في المستشفى يجب أن أذهب إليه قبل أن أفقده. ممرضون وممرضات على باب المستشفى الإسلامي يحاولون إنقاذ الكثير من الجرحى الذين سقطوا في انفجار قريب من الجسر في محلة السويقة، رغم أني لم أسمع الانفجار ليلاً ولا طلقات رصاص ربما من شدة حاجتي إلى النوم. صعدت إلى غرفة عبداللطيف، فلم أجده في سريره انتفضت خوفاً أن يكون غادر المستشفى، لكن رأيت على الكرسي قميصه مطوياً فعرفت أنه ما زال هنا، ربما في الحمام فطرقت بابه فتنحنح وأجاب بنعم. أخذت نفساً عميقاً وانتظرت خروجه.

أطل من باب الحمام كطرزان عاري الصدر، كأنه قفص صدري لهيكل عظمي لم يتساقط اللحم عنه أو كمومياء خرجت من أهرام

مصرية. ابتسمت له كي أفتح باب الاطمئنان بيننا. إلا أنه استقبلني بتكشيرة توحي بأن الود بيننا ربما يحتاج إلى عدة لقاءات، لكنني استرسلت في الحديث معه عن صحته فحمدالله أنه على قيد الحياة.

- ما زلت أعيش على هذه الأرض وما زلت موجوداً رغم أن الكثير من الشباب ماتوا، من له عمر لا تقتله الشدة يا ابنة رؤوف.
- لماذا تقول يا ابنة رؤوف.
- وماذا أقول لك ولا أعرف اسمك.
- آه نسيت أني لم أقل لك اسمي.
- أنا هدى رؤوف الشريف.
- كيف هي أمك؟
- أمي بخير وهل تعرفها؟
- لم أرها في حياتي ولكن سمعت عنها من أبيك خدوج صح؟
- نعم صحيح.
- هل مات وهو متزوج بها؟
- نعم لم يترك أمي رغم عشقه لعفاف.
- ومن هي عفاف هذه؟
- لا أعرف، ما أعرفه، اسمها عفاف الياس التقاها بعد عودته من طرطوس في تاكسي قرب ساعة التل الأثرية.

- آها يعني معك صورة لها.
- لا. كيف نسيت أن أفتش بين صوره على صورة لها. لا أذكر أني رأيت صورة لامرأة بين صور أبي. سأذهب الليلة إلى الشاليه لأفتش بين صور أبي.
- شاليه؟
- نعم شاليه أبي وعفاف، اشتراه ليلتقيها هناك.
- والله والله. هذا يعني أنه عاش بنعمة وفيرة بعد غرفة بعل الدقور.
- يبدو أنك تملك أسرار أبي حتى عرفت غرفة بعل الدقور.
- طالما تعرفين أن عبداللطيف هو صديق رؤوف، فهذا يعني أنك تعرفين من أكون لأبيك. فأنا الصندوق الأسود لرؤوف.
- يا عم عبداللطيف هل يمكن أن أعرف عفاف شحادة من تكون؟

تراجع إلى الخلف وأسند رأسه إلى وسادة السرير، كأنه سيتأمل شيئاً ما في سقف الغرفة ساحباً شهيقاً رفع صدره ثم انخفض وكأنه يمج سيكارة من حشيش أو يشم رائحة اخترقت روحه وأطلق آهة طويلة كادت تخيفني.

- كل هذا لأني سألتك عن عفاف من تكون؟

يا ابنتي النساء نعمة أو نقمة على الرجل فإما أن نعيش معهن في الجنة وإما أن نعيش معهن في النار. عفاف نعمة كبيرة لم أدرك جوهرها

إلا بعد أن فقدتها. كنت شاباً وطموحاً وبدأت المعارك في التبانة، فكان لا بد من المغادرة والهجرة إلى الخارج لتكوين نفسي، ومن ثم أتزوجها. لكنها كانت ترفض فكرة الزواج بي رغم أننا كنا كزوج وزوجة نعيش في حياة عشاق لا تنتهي، لكنها قالت لي: لا أعرف الحلول الوسطية، اقطع علاقتك بي قبل سفرك أو لنبق معاً في لبنان. إلا أني كنت طامعاً في الزواج من أسترالية من أجل الجنسية والعمل هناك لتكوين نفسي ومنذ ذلك اليوم ما رأيت عفاف.

- أين كانت تسكن؟ وما اسمها بالكامل؟
- أمها كانت تسكن فوق الدكان الذي رأيتني فيه واسمها جيهان المصري وهي عفاف إيليا سالم.
- كيف ذلك وأنت قلت إنها عفاف شحادة.
- هكذا يعرفها أهل حي السيدة حيث بيت عفاف شحادة، لكن اسم أمها الكامل كما قلت لك وهي من حي السيدة، وأبوها من بشمزين الكورة، وعفاف حبي الأول والأخير وابنة الحي الجميلة لكنها تخاف الاختلاط وتحافظ على مسافة بينها وبين الجيران فلا يتدخل أحد في شؤونها.
- أوف ما كل هذا؟
- نعم هي كذلك، جدها غادر لبنان إلى البرازيل ولم يرجع وأمها بقيت بعد أن تزوجت رجلاً كورانياً تبرأ منه أهله، وسكن في المنزل الذي تعرفينه فوق دكاني وأنجب عفاف

ومات بعدها بحادث أليم وهو يقوم بتصليح عطل كهربائي في منزله وبقيت أمها على ذكراه.

- أيعقل يا عم عبداللطيف؟
- نعم، عفاف عندما التقيتها كنت الرجل الأول في حياتها لأنها أحبتني ووثقت بي لكنني خذلتها وتركتها وسافرت وليتني لم أفعل لكن هذا قدري المنحوس.
- وما خص القدر يا عم عبداللطيف؟
- هو الذي يرسمنا ويجعلنا إما في سفينة نوح وإما خارجها ومن يبقى بعد الطوفان؟

لا أعرف ماذا أقول، توقفت عن الكلام نصف ساعة حيث أيقظتني من غفلة الشرود الممرضة التي دخلت تتفقد الشيخ عبداللطيف. نظرت إليه وهو يشاكس الممرضة بغزل فتي يخرج من هيكل عظمي بالكاد يتحرك. عرفت منها أنه سيبقى أياماً لأن دقات القلب ما زالت غير منتظمة، فقال لها مسرعاً دقات قلبي لن تنتظم والفاتنات في الحياة، فابتسمت وخرجت من الغرفة تاركة دهشتي من رجل ما زال لديه الحس الفكاهي.

تركته وتوجهت إلى شاليه القلمون لأفتش بين أشياء أبي عن صورة لعفاف، ربما! يكون قد أخذ بعض الصور معها، السير المزدحم بين المستشفى الإسلامي ومنطقة البحصاص لم يسمح لي بالوصول قبل ساعة. أحسست بالجوع فتوقفت واشتريت منقوشة زعتر على

الصاج مع عصير التفاح وبيرة بلا كحول. دخلت المطبخ المريح نفسياً للونه الأخضر الذي يبعث على الحياة. وضعت الأكياس على الطاولة وتوجهت إلى غرفة النوم حيث خزانة أبي ما زالت كما هي، فأنا الوحيدة التي تمتلك المفتاح، وهو كتب لي الشاليه قبل وفاته دون علم من أحد ولا أعرف لماذا! ربما أدرك أن أمي سيجن جنونها عندما تعلم وستلعن الساعة التي تزوجته بها كما تفعل دائماً وكأنها سيدة من الطراز الأول، وهو ابن الخادمة. كنت أغضب من أمي حين تفعل ذلك، ودائماً تذكره أنه اليتيم الذي تشرد ورعى الأبقار، وكأنها ابنة رئيس جمهورية وهي ابنة عمه. لا ندرك من هم الآخرون إلا بعد أن يضيف إليهم الزمن الكثير من العمر الذي يحولهم تبعاً إلى الأصول الطفولية التي نشأوا فيها.

وجدت محفظة جلدية سوداء فيها الكثير من القصاصات والأوراق والصور، حملتها ودخلت إلى المطبخ، جلست على كرسي وأمسكت منقوشتي، فالجوع كاد يعصف بأعصابي التي أخذت ترتجف دون توقف. العديد من الصور لأبي في بيروت في شارع الحمرا، في ميدان سباق الخيل وأوراق اليانصيب الخاسرة بين الصور مع صور له بين أعمامي وأصدقائه في السوق في التبانة، ومع إخوتي الصبيان الذين تركوه وسافروا، ومعي في ساحة الشهداء. تذكرت يوم ذهبنا إلى هناك، وبكيت لأني أريد شراء جزدان أحمر ولم أتوقف عن البكاء إلا بعد أن اشتريته. لكن المصور أخذ الصورة لي مع إخوتي مجد وحسين

وخالد وهشام. وأنا أبكي ضحكت وأكملت البحث بالصور لكني لم أجد صورة لأبي مع امرأة.

أحسست بالحزن يلفني لأنني لن أعرف من هذه العفاف التي أحبها أبي وحزن بعد فراقها حد الانتحار.

جلست قرب النافذة والبحر في هدوء جميل. اتصل بي بسام خطيبي يسالني أين أنا، فقلت له أنا في البترون عند صديقة لي. فطلب مني أن نلتقي عند الحلاب بعد ساعة. لم أقل له عن شاليه أبي، أحسست أن هذا المكان لي ولأبي فقط ولا يجب أن يعرفه أحد حتى أعرف من هي عفاف ومن تكون. وضعت ركوة القهوة على النار لأشرب فنجاناً ساخناً يعيد توازني. أخذت القهوة إلى الصالون لأشاهد برنامجاً صباحياً على التلفزيون، لمحت آلة الكمان التي كانت تعزف عليها عفاف كما أخبرني أبي في صندوق أسود. تركت فنجان القهوة على الطاولة وفتحت الصندوق وأخرجت الكمان الذي بدا آلة راقية ذات ملامح أثرية الشكل حاولت إمرار عصاه على الوتر، يبدو أنني فاشلة موسيقية بامتياز. بدت لي أنها تتذوق الموسيقى وتعلمت العزف على هذه الآلة في مكان ما لا أعرف إن كان من معهد لتعلّم الموسيقى في طرابلس في الخمسينيات من القرن الماضي.

وضعت الكمان في الصندوق فانتبهت إلى جيب بين أقمشته المخملية الخمرية اللون. مددت يدي إلى جيب الصندوق، فوجدت بعض الصور لأبي ولعفاف، وكم كانت دهشتي وهي تضع شالاً أسود

من الدانتال على رأسها، وهي جميلة فعلاً ذات ملامح شرقية بحتة يبدو أنها أشبه بسلمى الحايك تلك السمراء الناعمة فعلاً، وليست الشبح الذي عجزت عن معرفة من يكون، فهذه الشالات من الدانتال أراها على رأس بعض النسوة في الكنائس يوم الأحد أو عند موت أحد منهم. لا أعرف ما سر تلك السكينة التي أصابتني وكأني سقطت في ماء بارد مع ثلج أصاب أطرافي بالتجمد. يبدو أبي في الصورة شارداً بها أو معها لا أعرف إلا أن عيني أبي غارقتان في عينيها كما يبدو في الصورة، وكأنها سيدة أرستقراطية من قصر بريطاني مفعم بالأناقة والجمال. إنها تشبه سلمى الحايك بسمرتها اللافتة، جذبتني السلسلة في رقبتها التي تحمل الأيقونة نفسها في سلسلة أبي ولا أظنها صدفة. تأملتها دقائق محاولة أن أفهم معناها لأنها غالباً ما تكون إشارة للحفظ من العين، هكذا أذكر أن البعض يضعها على باب بيت أو أمام باب غرفة أو في سلسلة لتحفظ صاحبها من الحسد.

وضعت الصورة ولم أنتبه أن ساعة مضت إلا بعد أن رن الهاتف الخلوي. يبدو أن خطيبي سيشتعل من الغيظ، وضعت الصور في جزداني، ربطت حزامي حول خصري ونظرت إلى المرآة لأرتب شعري قليلاً وخرجت من الشاليه لألتقي خطيبي عند رفعت الحلاب في ساحة التل–طرابلس.

لن أغفر لتلك المرأة إن كانت هي عشيقة عبداللطيف أيضاً؛ يبدو أن النساء قادرات على إخفاء هويتهن في الحب إلى درجة أن تكون

امرأة واحدة حبيبة لأكثر من رجل. أعدت ترتيب أفكاري وأنا أقود سيارتي الرينو الزرقاء وفي أذني وضعت سماعة الخليوي لأستمع إلى معزوفة الكمان التي أرسلها لي ماريو، تلك الآلة الموسيقية التي عشقها أبي أيضاً ولم أعرف سر هذا إلا أخيراً. كيف لصانع أحذية أن يحب الموسيقى. يبدو أننا نصدر أحكاماً على من حولنا من خلال أعمالهم أو أشكالهم أو ما إلى ذلك. وصلت إلى ساحة التل وتركت سيارتي أمام قهوة فهيم القديمة بين زحمة من سيارات متوقفة هناك، واتجهت حيث الحلاب. كان بسام جالساً ينظر إلى إحداهن عندما فوجىء بإطلالتي، فابتسمت قائلة يبدو أن الرجل لا يشبع من النظر إلى النساء. ضحك بسام وقال: بل المرأة كائن خطر كالإصابة بمرض السرطان، وللشفاء منها لا بد من تناول الكيميائي الذي ربما سيصيبنا بأمراض أخرى في حالة شفاء ميؤوس منها.

طلب البوظة وبدأ بعتابه الذي لا ينتهي لي، أنت متى ستقررين عقد القران، أمي شنت هجومها اليوم وتقول لي هذه البنت لا تريد الزواج على ما يبدو. في العادة العروس تكون شغوفة بعقد قرانها وليس الرجل وما إن يطلب منها ذلك حتى تطير فرحاً. أحسست كأني عفاف وكلام بسام هذا يشبه كلام أبي عن رفض عفاف الزواج به، يبدو أنها كانت تحل الألغاز أو أن مسألة مصيرية جعلتها ترفض الزواج بأبي رغم حبها له.

وماذا يعني ذلك؟

- هذ يعني أريد تحديد عقد القران.
- أمي وصلت من أسابيع، انتظر فقط حتى تنهي أوراق توزيع الميراث حتى تكون ست خدوج هادئة وتستطيع الاستعداد لترتيب عقد القران مع أمك، لا أستطيع فتح الموضوع معها الآن انتظر.
- هذا وعد يا هدى؟
- نعم وعد يا بسام، لماذا هذا الشك؟
- أشعر أنك تهربين مني، وعند اتصالي بك أشعر أنك شاردة الذهن.
- لم يكمل أبي السنة على غيابه عني وأنت تدرك مدى تعلقي به، فكيف تريدني أن أكون وأنا أبحث عن تفاصيل حياة هذا الرجل.
- لماذا كل هذا يا هدى؟
- سأجعل من حياة أبي قصة درامية أكتبها إن كانت تستحق وهي كذلك.
- ألم تكتفي من العمل في الصحافة؟
- لا يا بسام موت أبي جعلني أشعر بالدراما في حياة كل منا، وهي مهيبة على ما يبدو ويصعب كتابة دراما كالحياة؛ هي بارعة في الكتابة على أقدارنا وأبي محق في عشقه لتلك الأغنية كتاب حياتي يا عين.

ضحك بسام وأمسك يدي يلامسها باشتياق وأنا أنظر إلى تينك العينين اللتين تشبهان عيني أبي، فأخافني. هل يمكن أن يعشق امرأة أخرى بعد زواجنا. سحبت يدي لأكمل أكل البوظة الشرقية الملونة مع الفستق التي يقدمها الحلاب في كؤوس جميلة وبسام يأكل المفروكة بالكاجو كعادته، شربنا القهوة بعدها لننطلق إلى أعمالنا.

توجهت إلى المستشفى الإسلامي حيث عبداللطيف لأعرف منه إن كانت عفاف شحادة هي عفاف الياس والصور في جزداني كأنها كنزي الذي بحثت عنه في جزيرة الكنز. توجهت إلى الغرفة ١٢٣ لكنه ليس في سريره، ظننته في الحمام، جلست على الكرسي أنتظر خروجه وما إن أدرت وجهي نحو باب الحمام حتى قفزت، لأن باب الحمام مفتوح وما من أحد. صرخت أدعو المرضة لأدرك أن باب الغرفة مغلق فلم تسمعني، اتجهت حيث الممرضات بسرعه لأسأل عنه فقالت لي رئيسة القسم: لقد خرج على كفالته لا أولاد له وما من أقارب كما قال.

- هل يعقل أن يخرج دون معرفتي؟
- ومن أنت قريبة له؟
- تجمدت ولم أعرف ماذا أقول.

خرجت من المستشفى نحو دكان عبداللطيف في جبل محسن، ولا أعرف كيف وصلت خلال نصف ساعة بعد زحمة السير العالقة في التبانة لأجد دكانه مغلقاً. سألت جاره صاحب المصبغة وكي الثياب فقال إنه لم يره منذ أيام، يبدو أنه مريض، عادة يغلق دكانه أياماً، ومن ثم يعود فسألته عن بيته فأجابني بأنه لا يعرف، سألت أيضاً من في الحي

في جواره ولكن لا أحد يعرف. إلا أنه يسكن في غرفة في حارة البقار. توجهت إلى هناك ودخلت حارة نشأت فيها، فعادت بي الذكريات إلى الصراعات التي كنت أرى فيها الأموات والدماء تسيل منهم على التراب، سألت عنه أبا سمير الطبوش فقال نعم هو في بناية المختار الطابق الأول، توجهت إلى هناك، يا لهذا الرجل كمادة الزئبق كلما حاولت الإمساك به أفلت من يدي.

طرقت الباب ومضت بضع دقائق وأنا أضغط على جرس الباب حتى فتح لي الباب وانبعثت رائحة قوية من بيت معتم يشبه الملجأ الذي كنا نختبىء فيه عند بدء المعارك. سحبت الصورة من جزداني ووضعتها أمامه فأمسك بها وبدأ يتفحصها لتتدحرج دمعته فيما بعد.

- نعم، هذه هي عفاف شحادة.
- تقصد عفاف إيليا سالم.
- نعم ابنة رؤوف.
- أوووووف عدنا يا ابنة رؤوف نادني هدى.

صدمة جعلتني أتوقف عن الكلام دقائق، لا أعرف كيف تكون عشيقة أبي هي عشيقة عبداللطيف، ولا أعرف إن لم تكن عشيقة رجل آخر أيضاً، وكيف السبيل للوصول إلى معرفة كاملة عنها.

بكى عبداللطيف وهو يقول لي: لم أحب امرأة كما أحببتها، فضحكت وسألته هل أحببت غيرها، أجاب إن الحب مثل درج المنزل كل حب يرفعنا إلى حب آخر إلا حب عفاف لأنه كالدرجة الأخيرة بعد النزول منها لا يمكن العودة إليها، والعمر بدأ يضعف.

أمسك بكوب من الشاي وبدأ يرتشفه وهو يروي كيف التقاها وهي تنحدر من عائلة ارستقراطية وتخاف أن يعرف أحد بذلك. أخبرته أن جدها سافر إلى البرازيل وحاول أن يأخذ أمها، لكنها رفضت وأعلن أنها ماتت لتبقى مع أمها في طرابلس وفي جبل محسن ظناً من الجيران أنها يتيمة بلا أقارب، حين أحببتها كانت تعمل مدرّسة موسيقى في مدرسة الفرير، وكانت ترتدي تنورة طويلة، وليست من البنات اللواتي يتبرجن كثيراً، وجاهدت كثيراً حتى بدأت تهتم بي، ومن ثم أصبحنا نلتقي في غرفة بعل الدقور. لكنها ما استسلمت لي ولم تمنحني نفسها رغم محاولاتي الكثيرة لكننا رغم هذا كنا أشبه بزوج وزوجة. كانت تخاف أن يعرف أحد الجيران من تكون فتضع الشال الأسود على رأسها وكنت أواسيها أننا سنتزوج فتضحك وتقول لي وهل طلبت يدك للزواج؟.

- برأيك ماتت في حرب أبي عمار أم اختفت؟
- لا أعرف صدقيني، لكن بعد الراحة قليلاً سأسأل عنها وسأعرف ذلك صدقيني.
- أين ستسأل يا عم عبداللطيف؟
- لها عم يقيم في بشمزين الكورة، سأذهب إليه وأسأل عنها.
- ما اسمه يا عم عبداللطيف؟
- لا، أسال أنا وبعد ذلك أخبرك.
- معك خلوي يا عم.

- ماذا ههههه تلفون لا يفتح الله لا أحب هذا.
- كيف ستخبرني إذاً ومتى ستفعل ذلك؟
- قريباً كم يوم وأقصده للسؤال عنه.
- أين أجدك هنا أم في الدكان؟
- في الدكان طبعاً يؤنسني ويجعلني في حالة أنسى مع من يشتري ويجالسني لأقص له حياتي ويروي لي قصصه..
- كيف عرفت أبي يا عم؟
- رؤوف كان القدر يمنحه المال لا أعرف كيف ذلك، صبي مرزوق كيف ما لعب بطلع مصاري، كنا معاً نلعب في السويقة ومن ثم التقيته في عمر الشباب بعد أن غاب عن الحارة فترة طويلة، رأيته في مقهى أبي مراد حيث كنا نجلس كل ليلة بعد أن التقينا مجدداً. بعدها قررنا أن نكون وحدنا في غرفة كنت أبقى فيها كناطور لبستان ليمون، ومن ثم استأجرتها لتكون مسكني، وبقيت فيها حتى غادرت لبنان. كنت ألتقي فيها عفاف التي كنت أخبرها عن رؤوف وكرمه وحزنه وحاجته لنبقى معاً. يبدو أنها أحبته من كلامي عنه. عندما كنت أخبرها أن لا تأتي إلى الغرفة حين يكون رؤوف هنا الليلة، ولا يجب أن نلتقي حتى أخبرها أنا أنه رحل. يبدو أنها اهتمت لمعرفته بعد رحيلي عن لبنان أو بعد إنهاء علاقتنا.

تركته يهدأ بعد نوبة بكاء جعلتني أندم على سؤاله لأني خفت على قلبه أن يتوقف جراء الانفعالات التي يتعرض لها من أسئلتي عن الماضي.

أغلقت باب بيته ونزلت الدرج المعتم متكئة على الجدران المثقوبة أو تلك التي نقشت عليها الرصاصات حكاية حارة البقار، وتركتها لجدران تكاد تصرخ من أوجاع من لم يهجروها. وتوجهت إلى البيت في الضم والفرز لأن أمي جاءت وعليّ البقاء معها، كانت أمي مع زكاء تنظف البيت بأوامر صارمة. تتأفف منها زكاء بصمت كلما أدارت أمي ظهرها. لم تترك أمي عادتها في توجيه الأوامر حتى إلى خادمة تحتاج إليها، ولا تستطيع العيش دونها لحظة يتساوى الإنسان عند قضاء حاجاته مع الآخرين، لأننا لا نستطيع أن نكون فئة واحدة في المجتمع الذي يحتاج إلى الفئات كافة كما المذاهب والأديان. متى يفهم العالم هذا ومتى يكف البعض عن تصفية الآخرين من محرقة الأرمن إلى مجزرة اليهود حتى مجزرة قانا ومذابح صبرا وشاتيلا، ألم يمل العالم كل هذا؟.

- أمي مهلاً على زكاء هي ليست رجلاً حديدياً. منذ متى تعمل؟ الساعه الثامنة مساء اتركيها ترتح وتنم.
- وما يهمك أنت، طوال النهار خارج البيت ابنة رؤوف أنت كأبيك لا يهمه إلا الأكل والشرب والنوم والاهتمام بالمنزل آخر شيء يهمه في الكون.

- دخلت غرفتي، وأنا أتمتم يا لأبي كيف استطاع العيش مع هذه السيدة التي تشبه مادلين أولبرايت يا إلهي! إن تسلط النساء أشد من الرجال وصراعاتهن مع أنفسهن لا تنتهي. لا أعرف حقيقة، وهي أمي لله الأمر.
- لا أعرف لماذا النساء يطالبن بحقوقهن، وها أبي قد مات منتحراً دون الحصول على أبسط حقوقه الحب والزواج بامرأة قدمت نفسها له ومنحته الحب الذي لا ينسى.

جلست على سريري والتعب أنهك عقلي وتفكيري قبل جسدي. لا بد من معرفة عفاف إيليا سالم هذه من تكون وهل من يهود فعلاً في طرابلس أو من أصول يهودية؛ فالعائلة بعض أصولها يهودي والبعض من ديانات أخرى متعددة. يبدو أن حرب أبي عمار قضت على حارة البقار وعلى حياة أبي أيضاً. أمسكت كتاباً لنيكولاي غوغول لأقرأ من أمسيات في قرية ديكانكا وأهدأ قليلاً لأستحم بعدها وأغفو بعد يوم متعب تاه عقلي فيه وتعب ذهني من تساؤلات لم أصل منها إلى نتيجة ترضيني.

خرجت من غرفتي وطلبت من زكاء إعداد قهوتي. إلا أن أمي صرخت بي.

- بنت قهوة على الريق ممنوع أحضري لها كرواسان بجبنة مع كوب شاي.
- أمي أنا من تريد القهوة لا أريد الكرواسان، أنا كبرت يا أمي لست طفلة.

- كبيرة وبلا عقل شو النفع احضري لها الكرواسان يا زكاء.
- شعرت أن مساجين الحبس الانفرادي قد يكونون أكثر راحة من منزل لا نستطيع العيش فيه من دون تدخل الآخرين بنا.
- أمي، ألم تحزني لموت أبي؟
- رؤوف ابن عمي وهو فوضوي لا يحب إلا نفسه لم يستطع فهم الحياة.

أحسست بالهوة الكبيرة بين أبي وأمي، فالحياة بالنسبة إلى أمي الدقة في كل شيء، والتشدد في تنفيذ النظام البيتي بصرامة، ولا يهم أن أرتاح مع الآخرين أو لا، المهم النظام الصارم الذي تتبعه في كل شيء. أدركت صعوبة أن يعيش أبي مع خدوج، فهو متحرر من كل هذا والشاليه يريح أعصابي عند الدخول إليه، فوجود أمي وصراخها الدائم مع زكاء يبدو كمعارك حارة البقار وجبل محسن التي تركت الحارات في حالة عشوائية يرثى لها.

نبش الحقائق يحتاج إلى معرفة الماضي. دخلت المواقع الإلكترونية العديدة بحثاً عن معلومات عن سلسلة أبي التي أهدتها له عفاف لأدرك أنها الرمز اليهودي، ودخلت لأقرأ الكثير من المقالات عن الكنيس ومواقعه في لبنان والوجود اليهودي القديم في طرابلس وصولاً إلى ما هو مذكور في جريدة البيان: «عام ١٩٥٨ ومع تصاعد الحركات الناصريّة والقوميّة العربيّة والفلسطينيّة، بدأت أولى حركات الاضطهاد لليهود. وهي خطف حاخام يهوديّ لمدّة ثلاثة أيّام، وقتله

ورميه أمام المعبد، ثمّ كسر زجاج المعبد. وتُحتّم اليهوديّة على اليهود ترك أي أرض لا يشعرون فيها بالأمان. فصار لبنان منطقة عبورٍ لإسرائيل وبدأوا بالهجرة منه. فقلّ عددهم حتّى عام ١٩٧٥، حين احتلّ أبو عمار المعبد اليهوديّ، ثمّ أخرجته حركة أمل واحتلّت هذه الأخيرة المعبد. كلّ اللبنانيّين الذين كانوا داعمين لليهود تخلّوا عنهم بعد مجازر الإسرائيليين في فلسطين. فُكّك المعبد وسُرق، ولم يستطيعوا تهريب سوى التوراة القديم. وخلال ١٧ سنة، أصبح عددهم ٧٠٠٠ يهوديّ».

حقيقة عندما قرأت هذا الكلام تجمد الدم في عروقي وأحسست أني بحاجة إلى كوب من الزنجبيل والشاي الساخن، لكن مؤكد ليس في البيت. أغلقت اللابتوب وارتديت ثيابي واستأذنت أمي للخروج إلى الكافيه لأجلس قليلاً قرب البحر. تركتها وتوجهت إلى الشاليه لأكون على حريتي دون صراخ يشتت أفكاري.

وصلت إلى الشاليه وتركت أشيائي متناثرة هنا وهناك، وكأني أغيظ أمي وأتمرد على تعليماتها في ترتيب البيت. أحسست بالراحة حافية عارية من كل شيء، دخلت البانيو وفتحت الماء الساخن على جسدي الذي بدأ يسترخي مع رائحة الخزامى التي بدأت تنبعث من الجيل دوش. ارتجفت فجأة لأني لم أنتبه من قبل أن عطر زهر الخزامى في كل أنحاء البيت من الصالون إلى غرفة النوم، وكانت عفاف تحيطني بروائح تحبها لتضفي على روحي ما أضافته على روح أبي. لبست روب الحمام لتحضير الزنجبيل، بحثت في المطبخ عن التوابل،

فوجدت في الخزانة من كل شيء أحضرت كوباً من الزنجبيل وعدت إلى موقع مجلة البيان لأكمل ما بدأت أقرأه وأدهشني «هل ضايق يهودَ لبنان، الفلسطينيّون المهجّرون من أرضهم بسبب يهود إسرائيل ؟» ومن بدأ الحرب على اليهود عمليّاً؟

على العكس، حمى الفلسطينيون اليهود في لبنان ونسّقوا معهم، وكان ياسر عرفات يقول دائماً إنّه «علينا استغلال اليهود في العالم لحربنا ضد اليهود». والرئيس جمال عبدالناصر حمى كذلك الأقباط واليهود، معتبراً أنّ نسيج الأقليّات يعطي المنطقة غنىً. وأهمّ أركان الحزب الشيوعيّ كانوا يهوداً. بعد اندلاع الحرب الأهلية وخلال سبعة أشهر لم يبق سوى ٣٤٠ شخصاً في لبنان، لم يوافقوا على الهجرة، حفاظاً على أراضيهم وأملاكهم.

أصبحت شبه متيقنة أنها يهودية، واختفت بعد حرب أبي عمار خوفاً وأن يفتضح أمرها أو أن يعرف أبي ذلك أو ربما لتعليمات مبهمة لا يمكن إدراكها ما لم أعرف من أعمامها بالكورة أين من الممكن أن تكون، ولكن مكتوب في الموقع أن «كلّ الطوائف كانت تزورهم لتهنئتهم في الأعياد. وكان أقرب الرؤساء إليهم: بيار الجميّل ورشيد كرامي وصائب سلام. كانوا يعايشون ويتعاملون مع جميع الطوائف. وكانوا يخافون من الحزب القومي السوري الاجتماعي الذي لا يفرق بين يهودي وصهيوني.

كان لبنان جنّة الرأسماليّة في المنطقة. وعندما خُيّر اليهود بالهجرة من المشرق، هاجروا إلى لبنان. فزاد عددهم في لبنان وأصبحوا ٤٠ ألف يهوديّ».

يا إلهي ما هذه المعضلة كيف سأسأل عنها أعمامها في الكورة. أحسست بنواقيس الخطر تقرع وأنا شبه متيقنة أنها من أصول يهودية وقد خافت أن يعرف أحداً بذلك، ولكن كيف يمكن لها أن تكون في جبل محسن؟ وكيف غادرته وإلى أين؟ وهل هاجرت أم قتلت. أسئلة محيرة فعلاً جعلتني في دوامة لا بد من الإجابة عنها لأني قررت أن أكتب هذه القصة التي أخذت مني حياة أبي.

نمت قليلاً ولم أشعر إلا بالعاشرة مساء وصوت أمي على الواتساب بتسجيل يسأل أين أنا.. ضحكت من سخرية التكنولوجيا. استطاعت أمي بفترة قصيرة تعلم المحادثة عبر شبكات التواصل لتلاحقنا أينما كنا افتراضياً. الحمد لله أنه لم يتم اختراع كيفية التواصل مع الأموات لكان أبي من الهالكين فعلاً..

توجهت إلى البيت بعد أن اتصلت ببسام ليسهر عندنا اليوم لأتركه مع أمي وأفكر قليلاً في كل الأحداث التي استطعت الوصول إليها لبناء الرواية التي استفزتني لتولد بعد كل ما جرى لأبي في كواليسها. اشتريت البيتي فور من عند ماجدلين في الميناء، والمخلوطة الفاخرة من محل الأندلس، ودخلت محل باتشي لأشتري الشوكولا المر وأخفيه في حقيبتي. لأن أمي مؤكد سيكون خطابها عن السمنة وأضرارها ويجب

أن أمارس الحمية قبل الزواج لأكون رشيقة جميلة في ثوب الزفاف إلخ..

أحياناً أتخيل أمي مثل رسم كاريكاتوري بأشكال مختلفة. كلما قمت بعمل ما أدرك أنها ستجده خاطئاً، فأضحك وأحمد الله أنها غير موجودة قربي. لكن ما استنتجته من عدة مقالات كثيرة أن اليهود مضطهدون من الإسرائيليين أنفسهم ليكونوا في إسرائيل فقط، ولا أعرف كيف يمكن لإسرائيل التفكير في هذا لأنها بهذا هي مثل أمي تحكم على وجود العائلة ضمن نظامها الصارم الذي يؤدي إلى انفجار كبير لا تحمد نتائجه، فالتشدد في كل شيء يصيبه بالنقصان.

كانت السهرة ممتعة مع أمي وبسام الذي أحضر أمه معه، كي يرتاح من أحاديث أمي وتعليماتها التي لا تنتهي. حين رأيت حماتي معه ضحكت واستقبلتها ببشاشة. يبدو أن بسام فكر مثلي ليرتاح من أمي فأحضر أمه هههههه، فلم تنفع حيلتي لأنه بذلك سيحدثني دون انقطاع.

كانت خدوج ونجوى في جولة على الماركات الكريستالية شفهياً، وبسام في حالة حب جعلتني كلما أمعنت في عمق غزله وأحاديثه أتذكر الحب الذي جمع أبي بعفاف التي لا يمكن لها إلا أن تكون قد عشقته، والاعتقاد الكبير أنها ماتت في حرب أبي عمار فعلاً، ودفنها أعمامها في مدافن الكورة.

انتهت السهرة في منتصف الليل عندما انقطعت الكهرباء كالعادة

تماماً مثل سندريلا يتم تحويل الكهرباء، وبدأت أمي تنتقد حماتي بعد خروجها، فكنت أبتسم وأتساءل هل يعقل أن أكون مثل أمي عندما أصبح في مثل عمرها وأثرثر كما النساء. يبدو أن أبي تركني في هوية تائهة لا أنا من النساء ولا أنا من الرجال هههه. لكنني أعشق بسام الذي جذبني بصبره وصمته وأفعاله الجميلة وفهمه لي ولعملي المجنون الذي يحتاج إلى حالة معينة.

في الصباح الباكر استيقظت بحالة وهن شديد وحرارة مرتفعة حاولت الوقوف فلم أستطع استسلمت مجدداً للفراش، ولغطاء يحميني من شدة البرد الذي أصبت به. بدأت أرتجف وأصابعي تحاول الوصول إلى الواتساب. لأقول لبسام إني مريضة اليوم، ولأتفقد المواقع بعدها التي تحكي عن يهود طرابلس. لكنني لم أستطع حتى فتح الواتساب. أرخيت الخلوي قرب الوسادة وغفوت ولم أستيقظ إلا على صوت أمي وهي تناديني كي أخرج لأني تأخرت. لكنها دخلت عندما لم أستطع الجواب لتتفقدني إن كنت قد خرجت من دون أن تراني. فأحست أني لست بخير، وكعادتها وضعت يدها على رأسي وصرخت زكاء اتصلي ببسام بسرعة، هدى مريضة حرارتها نار مشتعلة.

- يا ربي شو هالبنت العنيدة عندي أربعة شباب وابنة، ولكنها مقابل أربعة شباب عنيدة ولا تهدأ وفوضوية لا أعرف كيف ستتزوج!!!

بدأت قداسها الذي لا ينتهي فوق رأسي الذي يؤلمني. وأنا أفكر

في عبد اللطيف، يا ترى هل سيسأل عنها أعمامها في الكورة ويريحني من السؤال؟

أعطتني أمي المسكن والمخفض للحرارة مع عصير الليمون وأحياناً تدخل دون مساعدة صديق بكأس من البرتقال متمتمة: يبدو أن سهرة أمس أصابتك بالانفلونزا، لأنك جلست تحت المكيف مباشرة، وكنت متعبة. لو ارتحت في فترة ما بعد الظهر لما ساءت صحتك. إلا أن بسام أتى ليطمئن إليّ، فلم أستطع الخروج لأكمل البحث عن عفاف إيليا سالم.

لم أدرِ يوماً أن أعيش لغز امرأة في مدينة لم أكن أعرف أنها ضمّت اليهود بين ساكنيها، فلماذا الآن الأمر مجهول تماماً؟ وهل من مجتمع يبنى دون أن يكون متنوعاً؟ حملتني الأفكار في رحلة خاطفة نحو الطوائف والمذاهب بطرابلس صحوت منها على وميض ملامح عفاف في الصورة التي توحي أنها امرأة واعية وقادرة على فهم الحياة، التي عاشتها في طرابلس بغض النظر عن جبل محسن والتبانة، وربما تكون من أفراد اليهود الذين خافوا اضطهادهم في فترة تعج بقوات الردع السورية وقوات فتح الفلسطينية خصوصاً وأن حرب أبي عمار لم أستطع فهمها، وأنا طفلة صغيرة يدب الرعب في أوصالها، وهي في الملجأ ترتجف من وقع القذائف وأصوات الرصاص.

لم أعرف من أين أبدأ عندما خرجت من البيت. تركت السيارة متوقفة أمام البيت ومشيت أفكر بتطور الأزمنة عبر الحياة، رفعت رأسي بعد أن اقتربت من مبنى السرايا الشبيه بالثكنة العسكرية لأتأمل الداخل

والخارج إليها، والبعض ممن يحملون جوازات السفر، حتى وصلت إلى بنك عودة، دخلت من هناك متجهة نحو موقف الكورة.

سألت عن الأيوبي، فأشار الرجل الذي حادثني بإصبعه نحوه. سألت عن عائلة إيليا سالم فنظر إلي بغرابة والدهشة واضحة على جبينه الذي كثرت فيه التجاعيد. نعم هم عائلة تمتلك بيتاً في بشمزين، نعم هل تريدين توصيلة تاكسي أم سيرفيس؟ قلت له: تاكسي لا يهم. المهم أن أصل إلى بيتهم، فأنا لأول مرة أزورهم. هل تعرفين أحداً منهم في البرازيل؟ لا يوجد منهم هنا إلا العجائز، شبابهم هاجروا إلى البرازيل. نعم وهم عائلة طيبة وسمعتهم كالمسك من أفاضل الناس يا أختي.

نمت بيننا الإلفة عبر الأحاديث التي استرسل بها الأيوبي، ونحن في صعود نحو أحراج مدهشة في لوحاتها، وكأن هذه المنطقة الجبلية غير مسكونة لبيئتها الجميلة وأشجارها، وحتى أبنيتها ونحن في ارتفاع وبرودة في الهواء. توقفت السيارة أمام بيت جميل تحيط به الأشجار، مربع الشكل، وعند مدخله وضعت الكف التي تشبه كف اليد في سلسلة أبي، ولم أفهم هذا الرمز الذي نراه أحياناً للحماية من العين. دخلت فاستقبلتني امرأة عجوز تضع على رأسها شالاً أسود من الدانتيل يشبه الذي على رأس عفاف في الصورة. كلماتها الجميلة حفزتني للاسترسال زيادة في معرفتها بعد أن عرفتها بنفسي كصحفية تبحث عن امرأة أريد الحوار معها حول موسيقى لها سمعتها وكما قالوا لي إنها تسكن هنا.

وضعت يدها على ذقنها وأنا أفتح حقيبتي الجلدية وضعت الصورة أمامها، فتجمدت دقائق قبل أن تقول لي لتكن ذكراها مباركة. عفاف ابنة أخي إيليا، وقد توفيت منذ أشهر بعد صراع طويل مع السرطان لم يمهلها المرض أكثر من سنة. نظرت إليها وكدت أقول كيف ذلك؟ لولا أني تماسكت تماسك النخلة بثمارها. حدثت نفسي في شرود مهيب: أيعقل أنها استطاعت أن تبتعد عن أبي طوال هذه الفترة؟ وكيف لامرأة عشقها رجل كأبي الحنون والمحب أن تقاوم البعد عنه. أيعقل أنها للتجسس فقط واستخدمته لتكون قريبة من أمكنة ما؟ أم أن لها علاقة بحرب أبي عمار وإخراجه من طرابلس؟ سألتها بسرعة قبل أن تكتشف شرودي الطويل.

- أهي متزوجة؟
- نعم وزوجها مات قبلها، كانت من الأوفياء له وأمضت بقية حياتها وهي ترتدي الأسود حزناً عليه.
- وكيف مات؟
- توفي في حادث قطار في ألمانيا.

كاد رأسي ينفجر من شدة التعب في التعقيد الذي بلغ أشده، فهل يمكن أن تخطىء المرأة بصورة ابنة أخيها. حبذا لو أستطيع الحصول على صور لها مع زوجها. نظرت إلي نظرة شك، فأخرجت لها بطاقتي الصحفية لتطمئن، فدخلت إلى البيت وتركتني ربع ساعة كدت ألحق بها إلى الداخل لولا أنه يجب التحلي بالهدوء. خرجت وهي تمسك

بيدها مجموعة من الصور ووضعتها بين يدي دون أن تتكلم وكأنها غصت بالحزن من جديد. وضعت يدي على خدي وأنا أشاهد أبي في صور مع عفاف بلقطات حميمة وجمال رومنسي كأني أرى صوراً لعشاق من قصص منسية. ولا أعرف كيف ذلك وأبي لم يسافر يوماً كما أعلم أو الأحرى حسب معلوماتي.

كلما وضعت الصورة تحت الأخرى كانت تقول لي: عفاف رزينة وعاقلة وأمضت بقية حياتها تعزف على كمانها تاركة لدموع الكمان بكاء زوجها. وفي الصور كانت تبدو السلسلة على صدر أبي برمزها الذي يشبه الرمز على باب البيت قبل أن أدخله، وعلى السلسلة التي تزين صدر هذه المرأة عمة عفاف. أحضرت الخادمة فنجان القهوة مع كوب ماء في كأس ذكرتني ببصمات الشفاه. تركت الكأس وأخذت القهوة ربما تمنحني الهدوء قليلاً. تحدثنا عنها، وكيف نشأت في بيت والدتها في جبل محسن القريب من مدرسة الأميركان حيث درست، ومن ثم عملت فيها مدرّسة موسيقى. لكن لم أسألها عن أمها إن كانت يهودية الأصل خوفاً من ردة فعلها التي لم أستطع تخيلها، وكل كلمة كانت تقال تعيدني إلى نقطة الصفر، ولا بد من سؤال أمي إن كان أبي قد سافر خارج لبنان إلى ألمانيا حين كنت صغيرة، لكنني لم أذكر مطلقاً أن أبي سافر إلا إلى سوريا.

ودعتها وكان الأيوبي لا يزال في انتظاري أمام الباب الحديد الأسود يمسح سيارته البيضاء، والأغاني الطربية مسموعة بأنغامها

التي اخترقت حواسي المحترقة، والتي تبحث عن الأجوبة الشافية. يا لرؤوف ولحياته الغريبة المعجونة بالأحداث، أيعقل أنه سافر إلى ألمانيا ولم يخبرني وكيف فعل ذلك؟ أيعقل الخوف من أن تعرف أمي وإخوتي بذلك، وهذا ما سأحرص عليه بإخفاء هذه التفاصيل عنهم نهائياً. سألت الأيوبي الذي كاد ينحرف بسيارته عن الطريق عندما قلت له هل من يهود في الكورة؟ شو هالحكي يا بنت يهود هنا ما ممكن أبداً.

طلبت من الأيوبي أن يأخذني إلى القلمون لأني أحتاج إلى الراحة في الشاليه الذي جمعهما على ما يبدو كزوج وزوجة أو تزوجا زواج أمنا حواء وأبينا آدم. رميت بحذائي قبل أن أصل إلى غرفة الجلوس المليئة بالوسائد على الأرض، وارتميت على إحداها تاركة لروحي الاسترسال بالحزن وللخلوي استراحة الأموات بعد أن فصلته عن أي شبكة يمكن له أن يرن بعدها ويزعجني، ولا أعرف كم غفوت لأني لم أنظر إلى الساعة عند وصولي، ولا أهتم بخدوج وتأنيبها ولا ببسام واشتياقه. فتحت التلفزيون ودخلت المطبخ لصنع القليل من الشاي. تركت الإبريق على نار هادئة وتوجهت نحو الدوش تاركة للعري مجده، وكأني أحتاج إلى تدليك يفك عني تشنجات هذا اليوم. جيل دوش بعطر الخزامى، أمسكتها ورميتها بقوة بعيداً، فضربت الباب وتهشمت لتنتشر رائحة الخزامى. انسحبت من تحت الدوش دون منشفة والماء على جسدي يبرد بسرعة ويمنحني انتعاشاً مختلفاً. استلقيت على السرير أداعب سرتي كما كنت صغيرة. أيعقل أننا نرتبط بحبل سري مع الأب بشكل أقوى من الأم؟

وجدت بعض الملفات الموسيقية والدفاتر مرتبة أسفل طاولة تزينها مزهرية من الكريستال البوهيمي مع زهرة وزال اصطناعية في داخلها. تناولت الدفاتر وفتحت الأوراق الملقاة بين الصفحات منها أسماء نوتات ورسومات لمعزوفات لم أفهمها وبينها صورة لأبي وعفاف في مكان ما، قلبت الصورة فتجمدت عروقي، قبرص ١٩٧٧ يا إلهي، هذا يعني أن أبي قد سافر خارج لبنان، ومن الممكن جداً أنهما تزوجا فعلاً في مكان ما زواجاً مدنياً، دون علم أحد ولم يرغب أبي في الحديث عن ذلك معي ظناً منه أن الأمور ستبقى سراً. تركت لقميص من الجينز تغطية جسدي دون أن أرتدي أي شيء تحته لأتحرر من كل شيء يزعجني، ولولا أن يظن البعض أني مجنونة لأكملت طريقي عارية بعد أن اتجهت إلى القبة حيث العم عبداللطيف. كانت الطريق إلى القبة وحارة البقار تحديداً كأنها تخرج من زمن وتدخل إلى زمن آخر حيث الأبنية تكاد تنهار، والمحال كأنها خرجت من صور قديمة. لم أستطع الصعود إلى درج بيت عبداللطيف لولا أن ركزت بصري على كل درجة من شدة العتمة.

فتح الباب وصدره عارٍ تماماً وكأنه يستقبل امرأة في موعد غرامي وارتمى على كنبة متهرئة قرب باب المطبخ وكأس العصير بيده تهتز.

- أهلاً بابنة رؤوف ما هذه الغيبة؟
- أبداً كنت أبحث عن عفاف المزدوجة.
- ماذا تقصدين؟

- صعدت إلى بشمزين وتعرفت إلى عمتها التي لا تشبه عمة رؤوف أبداً.
- وهل هي مسيحية؟
- لم أسأل عن هذا لأني عرفت أن العائلة ملتزمة اجتماعياً ويبدو أنهم من الطيبين، وما قالته عن أقاربها في البرازيل جعلني أشك أن عفاف تميل إلى اليهودية وتخفي ذلك. لكن صدمة أصابتني لأني رأيت صوراً لأبي وعفاف في ألمانيا ومن ثم وجدت أخرى في قبرص.
- ماذا؟
- نعم لقد سافرا على ما يبدو معاً إلى ألمانيا وقبرص. ولم أعرف شيئاً عن أمها اليهودية أو جدها لأمها اليهودي لأني أحسست أن ذلك سيزيدني بحثاً وسيضعني أمام من أسأله موضع شك.
- كما قلت لك يا ابنة رؤوف أمها يهودية مهاجرة منذ زمن أتت إلى طرابلس وتزوجت الكوراني.
- نعم هو من بشمزين الكورة لكن عمتها أخبرتني أنها تزوجت وحسب الصور زوجها هو أبي.
- تجمد عبداللطيف وكأنه بات الهيكل العظمي الذي فقد الروح، صرخت به فتحرك.
- ما بك يا ابنة عبدالرؤوف اهدئي.

- هذا يعني أنهما تزوجا خارج لبنان وعاشا كزوج وزوجة ولم يشأ رؤوف أن يخبرك بذلك؟

تركت عبداللطيف يسترسل في الكلام عن ماضيه مع أبي، وكيف كانا يمرحان في بيروت ولا يستبعد سفر رؤوف إلى ألمانيا وقبرص دون معرفة أحد. لقد كان يؤلف القصص، ليبرر ما يشاء بمهارة وبراعة، وكم من مرة أخفى عن أخيه أحمد غيابه عن طرابلس بشغل يجهز له في محال لأسماء وهمية ويصدقه أحمد أخو رؤوف الكبير وهو يقصد عمي الطيب صاحب القلب الكبير الذي توفي قبل أبي بسنوات قليلة.

تركت عبداللطيف بعد أن طلبت منه أن لا يخبر أحداً بذلك ووعدته بزيارته باستمرار لأن قصة أبي سأتركها كما هي إلى أن يشاء الله كشفها بشكلها النهائي، لتتضح الأمور بهدوء لأني تعبت وما عدت قادرة على حل ألغازها. ذهبت إلى السوق مباشرة لعل في التسوق راحة ومشيت بين واجهات المحال الزجاجية في سوق البازركان، اشتريت قميصاً أبيض وفولارد أزرق مع بنطلون من الجينز تاركة لقدميّ السير لأن الشرود كان يريحني إلى أن وصلت حيث تركت سيارتي. تذكرت أنه فاتني أن أسأل أين دفنت زوجة أبي السرية وهذا يجب معرفته، لكن، وماذا يعني ذلك ما دام رمز اليد في السلسلة على صدر أبي هو نفسه على صدر عمتها وعلى باب البيت..